وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الشابي

أبحاث - وثائق - صور
(القسم الثاني)

كتبها ونشرها
أبو القاسم محمد كرّو

سلسلة « ذاكرة وإبداع»

المركز الوطني للإتصال الثقافي

دار الكتب الوطنية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الشابي : أبحاث-وثائق-صور (القسم الثاني)

كتبها ونشرها : أبو القاسم محمد كرو
تاريخ النشر : 2010
الناشر : وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المركز الوطني للاتصال الثقافي
مكان النشر : تونس
اللغة : العربية
الوصف المادي للوثيقة : 199 ص. ؛ 21 سم.
ردمك(ISBN): 978-9973-910-38-7
السلسلة : ذاكرة وإبداع، ج 35
الموضوع : أعمال وتراجم أبو قاسم الشابي
تصنيف ديوي العشري : 928
المفاتيح : أعمال وتراجم، أبو قاسم الشابي، الشعر التونسي، الأدب التونسي المعاصر، وثائق خطية، صور، الحداثة، النهضة الأدبية والفكرية في تونس، الحركة الاصلاحية ، أدباء تونسيون، رسائل، المكتبة الوطنية التونسية،الخلدونية الرقمية، الانسانيات الرقمية.

A-8-304421

دار الكتب الوطنية التونسية © كافة الحقوق محفوظة

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

A-8-304421

وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

الشـــــابي

الكتب الوطنية
التوثيق والاعلام
رقم: 554 /2013

أبحاث - وثائق - صور

(القسم الثاني)

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

كتبها ونشرها
أبو القاسم محمد كرّو

وزارة الثقافة تونس المكتبة الوطنية
438205

منشورات
المركز الوطني للاتصال الثقافي
تونس2010

وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

سلسلة «ذاكرة وإبداع»
الكتاب عدد 35
سلسلة فصلية ينشرها
المركز الوطني للاتصال الثقافي

إدارة : السيدة نور الهدى الصدفي
يشرف عليها : أ. عبد الوهاب الدخلي
إخراج ومتابعة : فتحي اللواتي

العنوان : الشابي : أبحاث- وثائق - صور
(القسم الثاني)
تأليف : أبو القاسم محمد كرّو

الطبعة الأولى : 1000 نسخة - جوان 2010
الانجاز الطّباعي : مطبعة المغرب للنشر بتونس

جميع الحقوق محفوظة
للمركز الوطني للاتصال الثقافي

ر.د.م.ك : ISBN 978-9973-910-38-7

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

تقـــديم

أبو القاسم محمد كرّو
نصير الشابي ومُجدّد ذكراه في كلّ حين

من غيره كان أوّل من دلّنا على «الشابي» شاعرا تونسيا خالدا بالمعنى الأتمّ؟

من غيره كان أوّل من أرانا «الشابّي» منشورا عميم النّشر؟

ومَن غيره كان أوّل من علّمنا كيف نفهم «الشابّي» تمام الفهم، وكيف نحبّه أعمق الحبّ؟

بلى، أبو القاسم محمد كرّو هو الأوّل من خلال مجمل ما ألّف عنه وما نشر.

اليوم، وأنا في الثالثة والستّين من عُمْرٍ «ذهب معظمه ضحيّة آفة اسمها الثقافة»، أعيدُني إلى ذاك الطّفل الذي كُنْتُهُ عام 1957 ، عام جمهورية تونس المستقلّة، فأراني – ذات صباح صيفي – مع أبي في ساحة بلدية صفاقس أهتفُ عاليا بحياة تونس وأرَدِّدُ مع المُردّدين:

«إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بدّ أن يستجيب القدر»

فلمّا رجعنا إلى البيت، سألني أبي: «ألا تعرف من قصائد الشابّي المزيد؟» أَجَبْتُهُ بأني لا أعرف.
قال: «رأيت مرّة عند خالك أحمد كتابا عن الشابّي، هل اطّلعت عليه؟»، قلتُ له:« إنّي لمْ أرَهُ بعد وسأسأل خالي عنه»، ولكنّي لم أذهب إليه.

في أوّل صيف 1958 بدأت أسرتنا تستعد للانتقال إلى قفصة حيث يشتغل الوالد. ذهبت إلى خالي أحمد ورجوته أن يعطيني من مكتبته الصغيرة ما يودّ من الكُتب والمجلات، مؤكدًا له أنني سأعيدها إليه بعد رجوعنا إلى صفاقس، فأعطاني - مُرَحّبًا ومشجّعا - بعض المجلات العربيّة، وكتاب «العواصف» لجبران خليل جبران، وكتاب «الشابّي - حياته وشعره» الذي ألّفه أبو القاسم محمد كرّو عام 1950 ونشره ببيروت / لبنان عام 1952. ولا أدري متى دخل تونس ووصل الى خالي أحمد رحمه اللّه؟

في حي «الشّومينُو» - القريب من محطّة القطار ومن بلدة «قصر قفصة» - كان بيتنا الجديد حيث قرأت، تحت ظلال كرمة يانعة، كتاب «الشابي» وهو أوّل كتاب جمعني بـ«القَاسَمَيْن»: الشابّي وكرّو، تعلّما منهما ومحبة لهما.

في أوّل الستّينيّات فاجأني يوما صديقي عمارة عبادة الشابّي –رفيق الطفولة والدراسة الابتدائية– بكتاب «كفاح الشابّي» هذا الذي أبتهجُ اليوم بقراءته مجدّدا بمثل ما ابتهجت من قبل بقراءته في «رقوبة قفصة» وفي غَابة «لالة» البهيّة.

بلى، أبو القاسم محمد كرّو هو - أيضا - أوّل من منح عديد كتّاب المشرق والمغرب فرص الكتابة عن الشابّي. وقد اعترفوا - في مؤلفاتهم - بريادته ومرجعيّته. ومن بينهم أذكر هنا: أحمد زكي أبو شادي، رجاء النقّاش، ميخائيل نعيمة، صالح جودت، خليفة محمد التلّيسي، عيسى النّاعوري، وغيرهم... كما يعلم كلّ مطّلع على «موسوعة الشابّي» التي أنجزها الأديب الباحث الكبير: أبو القاسم محمد كرّو.

بلى، الشابّي وكرّو: وجهان أليفان في رياض الثقافة الإنسانيّة الرفيعة التّقيا على حُبّ هذا البلد، ولن يفترقا.

فتحي اللواتي
تونس، أفريل 2010

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

الشـــابّي

أول كتاب ألّفه أبو القاسم محمد كرّو ونشره عن الشابي سنة 1952 ببيروت - لبنان. وانطلاقا من هذا الكتاب بدأ مشوار كرّو مع شاعرنا الخالد.

الشـــابّي

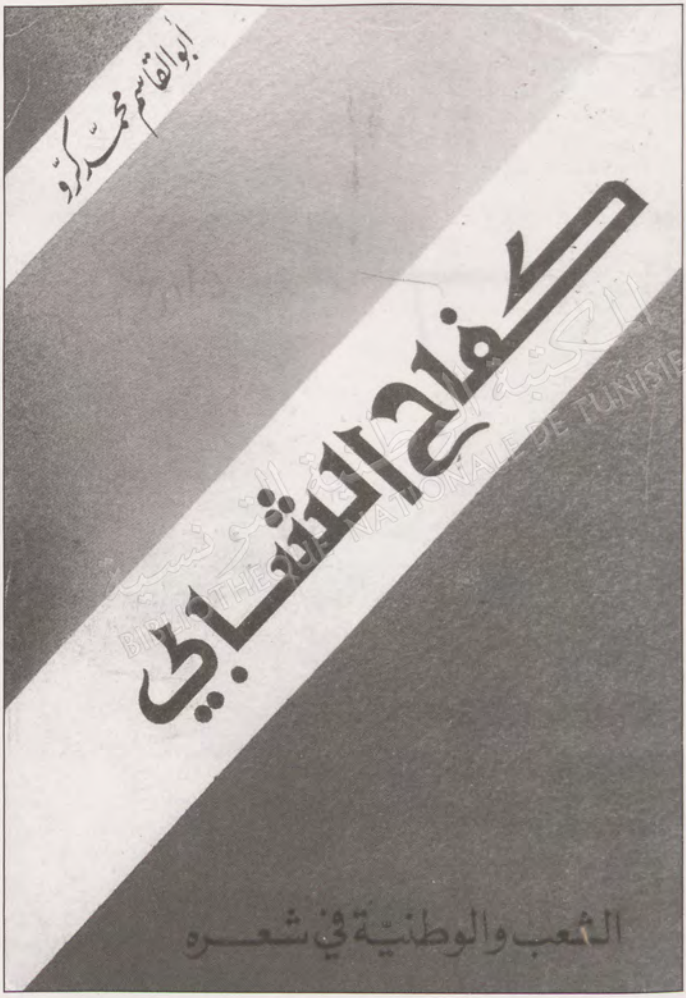

الكتاب الثاني من مشوار الأستاذ كرّو التأليفي عن الشابي. وهذه طبعته الرابعة صدرت سنة 1989 بدمشق. وأمّا الأولى ففي بيروت سنة 1954.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

« كفاح الشابي »

أو: الشعب والوطنية في شعره

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الإهـداء

إلى الجيل العربي الجديد

إلى شباب تونس الثائر

أقدّم هذه الملامح والنماذج

من كفاح شاعر شاب

عاش للثورة :

داعيا

ورائدا

وقائدا

أبو القاسم محمد كرّو

1954

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

مقدّمة الطّبعة الثالثة

هذه طبعة ثالثة يقدّم بها هذا الكتاب إلى القرّاء، ولم يمض على طبعته الأولى ستّ سنوات. ولقد كان ممكنا أن يعاد طبعه أكثر من ذلك خلال المدّة نفسها، ولكن حال دون ذلك تطورات جديدة جدّت على حياة الشابي وأدبه (١) وشعبه، أهمّها استقلال تونس، ذلك الأمل الذي كان الشّابي يكافح من أجله ويتنبّأ به ويبشّر :

إنّ ذا عصـــر ظلمـــة غـير أنّي ... من وراء الظلام شمت صباحه
ضيّع الدهر مجد شعبي، ولكن ... ستردّ الحياة يوما.. وشـاحـه

وقد ردّت الحياة وشاح الحرية للشعب التونسيّ، حين أراد هذا الشعب أن يحيا حرّا عزيزا فوق أرضه الخضراء، وما تريده الشعوب لا بدّ أن يتحقّق :

إذا الشعب يوما أراد الحياة ... فـلا بـدّ أن يستجـيب القـدر
ولا بدّ للـيل أن ينجلـــي ... ولا بـدّ للقـيـد أن يـنـكسـر

لقد انكسر القيد وانجلى ليل الظلم والعبودية، وهذا ما يريح ويبهج روح الشابي في عالمه السرمديّ المتسامي، ويضفي على اسمه هالة كبرى من الإجلال والإكبار، ويزيد في ولاء المعجبين به وانبهارهم بعبقريته ونبوغه.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابي:
(الشابي: حياته، شعره) ط 3

ولعلّ خير تقدير للشاعر هو في ذلك الاحتفال الذي أقامه له شعبه في العام الماضي بمناسبة ذكرى ميلاده الخمسين، حيث اشترك الفكر والقلم والريشة والنغم في إعلاء مجده، وإشاعة ذكره وإحياء أدبه.

ولئن لم يكن الاحتفال في مستوى الشابي الحقّ، فإنّ فيه – على الأقلّ – أداء للواجب، وشعورا بالمسؤولية، وإحياء لذكرى كادت تضيع في ظلام النسيان والنكران، وضباب الجمود والعقم.

وإذا كان لي شرف المساهمة في إحياء تلك الذكرى(1)، ثمّ تحويل المساهمة الى كتاب شامل عنه(2) فإنّ في إعادة طبع كتابي هذا لتجديدا آخر، ومشاركة ثانية في تقدير شاعر شابّ لم ينجب وطنه ثانيا له في التاريخ منذ عرف هذا الوطن الشعر العربيّ إلى اليوم!

وإنني إذ أقدّم هذا الكتاب إلى قرّائه للمرة الثالثة، فإنني لأرجو أن يجدوا فيه وفي فصوله الجديدة نفعا جديدا وأفقا بهيجا من الخيال والشعر، والعرض والدرس، ليس يوجد شاعر جدير بها جدارة أبي القاسم الشابي واستحقاقه.

أ.م.كرو

بيروت 1960/7/30

---

(1) المحاضرة ألقيت يوم 1959/11/11 تحت عنوان (صدى الشاعر الشابي في الشرق).

(2) صدر بعنوان (آثار الشابي وصداه في الشرق)، بيروت 1961.

مقدمة الطبعة الثانية

لم يكن في نيّتي أن أعيد طبع هذا الكتاب الآن وعلى صورته السابقة، فقد كتبته وقدّمته للطبع وأنا بعيد عن تونس الخضراء، بعيد عمّا أحتاج إليه فيها من مراجع وتحقيقات. وقد أعلنت في مقدمة طبعته الأولى أنّني سأستدرك ما فاتني يوم أعود لتونس، وأجد ما كنت أفتقده وأنا بعيد عنها، يومئذ يعاد طبع هذا الكتاب بصورة أشمل وأدقّ وأوسع وأوفى ممّا هو عليه الآن.

ولقد عدت لتونس فعلا وها أنا بها منذ أكثر من سنتين، وها أنا أدفع بهذا الكتاب ليعاد طبعه دون أن أتمكن من تحقيق رغبتي السابقة، وما وضعته لها من منهج دقيق كبير، والسبب في ذلك يعود إلى:

أولا- أنّني لم أجد ما كنت أحسبه موفورا من حقائق ووثائق تتّصل بالموضوع وتمدّ الباحث بما يتعلّق ببحثه، ويتّفق مع خطته. وقد تكون هناك بعض الحقائق أو الوثائق مغمورة عند من لا يقدّر قيمتها، أو لا يريد لها الظهور لسبب في نفسه، ولكنّ الأيام قد تكشف عنها، وتظهرها للناس، كما أنّ الموت القدير قد يقضي عليها يوم يقضي على أصحابها(١)، ويومئذ ستكون الخسارة جسيمة والنكبة فادحة.

ثانيا - إنّ ضغط العمل لم يتح لي ما أحتاج إليه من فراغ

(١) راجع فصلا بعنوان (تراثنا الأدبي في خطر) ص136-149 من كتابي (حصاد القلم).

ووقت متّسع، لأسير في خطّتي كما وضعتها يوم كتبت هذا الكتاب وأنا بجبل لبنان.

ثالثا - لقد رغب عدد غير قليل من القرّاء، وبخاصّة طلبة شهادة (التحصيل) (١)، وكذلك عدد من أصحاب المكتبات في الشرق والمغرب العربي، في إعادة طبع الكتاب، وألحّ بعضهم في ذلك إلحاحا شديدا، فلم أجد بدّا من إعادة طبعه على صورته السابقة، باستثناء فصل عنوانه (الطاهر الحداد) فقد حذفته من هذه الطبعة، اعترافا بصدق ما لاحظه عنه الأديب الناقد الأستاذ خليفة التليسي فيما كتبه عن الكتاب، فقد قال حضرته:

«وقد أطال الوقوف عند هذا الثائر الأخير (أي الطاهر الحداد) وكان من الممكن أن يكتفي بالإشارة إليه، ولكنه مـــن المؤمنين به، والمعجبين بحركته، وكثيرا ما حدّثني عن نيته في إخراج كتاب عنه، وقد كنت أوثر أن يؤجّل هذا الفصل الى ذلك الكتاب، لأنّها وقفة كانت على حساب غيره من الشعراء والأعلام الذين اكتفى بذكر أسمائهم فقط، وعذره أنّه يتوجّه بها إلى القارئ التونسيّ قبل القارئ العربيّ»(2).

وها أنا فعلا أحذف ذلك الفصل الخاص بالطاهر الحداد لأضمّه إلى كتابي الذي أعدّه عنه، وفي هذه الاستجابة لما

---

(١) شهادة التحصيل هي شهادة انتهاء التعليم الثانوي الزيتوني بتونس. وكانت تسمى في عهد الشابي (شهادة التطويع)وقد ألغى نظام بورقيبة التعليم الزيتوني.

(2) راجع المقال كله في مجلة الندوة التونسية س4 ع6 ص19 وقد ألحقناه مع ردّنا عليه في ملاحق هذه الطبعة.

أبداه هذا الأديب الليبي الناقد من ملاحظة صادقة وصائبة، أعطي للنقد قيمته الحقيقية والعملية، حين يكون نقدا صادقا نزيها.

وفيما عدا ذلك لم يحدث أيّ تغيير في الكتاب. وسيجد القارئ فيه متعة وجدانية وأدبية رائعة، كما سيحسّ ويدرك من حرارة أسلوبه وحماسة أجوائه كيف ينبغي أن يكتب عن (كفاح الأدباء) وكيف يجب أن توصف وتصوّر المفاخر القومية... سواء أكانت أحداثا تاريخية، أو شخصيات أدبية، أو كانت غير ذلك.

ولعلّني بهذا العمل قد قمت ببعض الواجب نحو شاعر أحببته منذ زمن بعيد، وما زلت أحبّه كأقوى ما يكون الحبّ، وأعجب به أشدّ ما يكون الإعجاب، وإن كان حبّي له وإعجابي به ليسا إلاّ صورة حقيقية للحبّ والإعجاب أحملهما للأرض التي أنجبته والشعب الذي ينتسب إليه.

أبو القاسم محمد كرّو

تونس 1957/1/15م*

---

* صدر هذا الكتاب فعلا عام 1957 ضمن سلسلة (كتاب البعث)، رقم 21 بتونس

مقدّمة الطّبعة الأولى

لست أدري إذا كان بين القرّاء من لا يعرف فقيد الأدب العربي المرحوم أبا القاسم الشابي، شاعر الشعب والحرية، شاعر الحياة والخلود، شاعر الفجر المتوهج والبعث الجديد... شاعر الحبّ والطبيعة والجمال.

وسواء أكان القرّاء يعرفونه جميعا أم لا، فإن الحديث عن الشابي وعن شعره حديث دائم لا ينتهي، وحديث جديد لا يملّ لأن الشابي وشعره قد ارتبطا بتاريخنا وأصبحا حلقة ذهبية كبيرة من أمجادنا الخالدة.

بل إني أزعم أنّ تاريخ شعبه الأدبي الحديث لم يبدأ إلا بالشابي، يوم أن خرج بالأدب عن حدوده الضيقة وطرائقه الميّتة وسما به من دنيا الخصوصيّات والتوافه وكلّ الأغراض الاجتماعية أو الذاتيّة الرخيصة، إلى عالم مُشرق وجميل، يفيض بالنّور والمحبة والخير والكرامة البشرية ويعبّر عن المطالب السامية للنفس الإنسانية، ويصوّر الجوانب الرفيعة من حياتنا، ويتجاوب في إحساس ووعي كاملين مع مطامح الشعب التونسي خاصة والأمة العربية عامة، في توهج حارّ وجمال فاتن ويقظة مستنيرة تدعو للحياة وتثور على الذلّ، وتحارب الطغيان والخنوع كليهما، لأنّ الطغيان رذيلة، ولأن الخنوع رذيلة أيضا. والشاعر الحرّ لا يستطيع أن يعيش إلاّ في جوّ من الفضيلة السامية التي تجعل الحياة خيرا وسلاما ومحبّة وعدلا.

ولحسن حظّنا، نحن أبناء هذا العصر، أن وجدنا شعراء

وكتابا شقّوا لنا الطريق، طريق النضال والتحرّر، بما خلّفوه لنا من تراث يفيض جمالا وسحرا، ويزخر بآيات خالدة تعبّر عن آمالنا وآلامنا كجيل يريد لأمته أن تتحرّر من كلّ أنواع العبودية وجميع ألوان التأخر.

وأبو القاسم الشابي، يقف بين هؤلاء الشعراء والكتّاب واضح الملامح، قويّ الشخصية، برغم كلّ الفروق التي تميّزه عنهم وبرغم جميع الملابسات التي أحاطت به. وإذا كان الجميع قد كانوا روّادا لأمتنا العربية، وطليعة قائدة وباعثة في نفوس الجماهير وعيا وإحساسا بحق أمّتنا في الحياة والحرية، فإنّ أغانيهم وقصائدهم الوطنيّة والاجتماعية كانت في أغلبها مطبوعة بطابع الإقليمية الضيّقة أو الموصولة بحوادث محلية محضة، تجعل منها سجلا تاريخيا لا أكثر ولا أقل. بينما نجد الشابي يرتفع بشعر الوطنية إلى ذروة سامقة مشرقة تضيء للشعوب العربية جميعها طريق الخلاص والحرية، وتعذبُ أنغامها في شفاه المناضلين في أيّ بلد عربي.

ولست أجد له شبيها في هذا سوى الفقيد المرحوم معروف الرصافي على مستوى أقلّ في الشاعرية والشمول، إذ أنّ الشابي يرتفع في قصائد كثيرة له إلى مستوى إنسانيّ فتبدو أناشيده وكأنّها جعلت للبشرية كلّها لو أتيح لها أن تترجم إلى لغات الشعوب جميعها. وهذه ميزة تضعه في صفّ الشعراء العالميين على قلّة ما ترك من تراث، كان ممكنا أن يكون أجمل وأعمق وأضخم، لو كتب له أن يحيا عمرا مديدا بيننا، ولكنّ يد الموت الهصور قد قطفت حياته وهو ما يزال غضّا كالزهور، باسما كالربيع.

لقد مات الشابي فتمثّلنا بقول الشاعر :

والموت نقّاد على كفّه جواهر يختار منها الجياد

وقد لا يرضى بهذا صاحب الغربال(1)، الذي رأى في هذا البيت مدحا للميّت وذمّا للأحياء جميعا(2). لعلّه خشي أن يكون واحدا منهم. أما أنا فلا أرى فيه إلاّ تصويرا خاصّا للوعة الشاعر على فقيده وتعبيرا عن حالة وجدانيّة غير واعية.

ثم ألا تكون معي يا صاحب الغربال، إذا اعتبرنا شعراء الخضراء جواهر مختلفة الأحجام والقيمة، وأنّ الموت عرف كيف يختار أعظم الجواهر وأغلاها؟!

إنّ الشابي جوهرة ليس لها مثيل بين جواهرنا المعروضة في سوق شعرنا العربيّ المعاصر، وقد فقدت من السوق في غفوة البائعين والحرّاس، ولم يدركوا بعد قيمة ما فقدوه.

وقد كان لي شرف السبق بإصدار أوّل كتاب عنه، ضمّ دراسة وافية عن حياته ومختارات منوعة من شعره، وأحسب أنّ مثل هذا الكتاب كان ضروريا لكل قارئ وأديب، ولعلّه سيظلّ المصدر الأكمل عنه إلى أن يظهر للناس ما هو خير منه وأشمل دراسة وترجمة لحياته وأدبه.

---

(1) هو الأستاذ ميخائيل نعيمة.

(2) (كتاب الغربال) ص100 طبعة 1951 بالقاهرة.

غير أنّ هناك جوانب كثيرة من حياة الشابي وأدبه لم أتعرّض لها في كتابي السابق عنه، لأنّني أخرجته في شيء من السرعة وفي كثير من الحذر والخجل.

ورغم النجاح الأدبيّ الذي ناله، وما قوبل به من تقدير وترحاب في شتّى الأقطار العربية، ومن أدبائها ونقّادها، مما دفع بناشريه إلى إعادة طبعه (١)، رغم ذلك كلّه فقد أبقيته على صورته الأولى آملا أن يتاح لي في يوم من الأيام إخراج كتاب شامل يكون بمثابة موسوعة كاملة عن حياة الشابي وأدبه، غير أن هذا عمل ضخم وجهد يحتاج إلى سنوات طوال، وعلى ذلك لم أجد مناصا من أن أقوم بمحاولة أخرى، ولكنّها من نوع جديد، محاولة تعرض جانبا واحدا من شاعرية الشابي ونضاله الاجتماعي، محصورة على وجه التحديد في نزعته الوطنية وكفاحه الأدبي والوطني ضدّ الرجعيّة الأدبيّة والدينية، وضدّ الاستعمار والطّغيان اللذين أناخا بكلكليهما على شعبه الصغير، فأفقداه الرّشد والعافية وسلباه الحرية والرخاء.

ولست أزعم أنّني قمت في هذه المحاولة بواجبي الأدبي والوطني كاملا فإنّ ذلك يحتاج إلى وقت وإلى استقرار وإلى مراجع كثيرة لم تسعفني الحياة بواحد منها، وإنما حاولت أن أستعرض آراءه وشعوره الوطني، ممثلين في شعره ونثره وما رافقهما من ملابسات وصراع أدبيّ

---

١ الأولى عام 1952- الثانية 1954 – الثالثة 1960 وآخر طبعة عام 1984

ووطنيّ. ولم أعط للزمان والمكان أهميّة ما، لأنّ وطنية الشابّي كانت شعورا وإحساسا وعملا فكريا أكثر منها حوادث زمنية مرتبطة بمكان أو ظروف معينة.

وأعترف سلفا بأنّ هذه المحاولة ليست دراسة تحليلية أو تاريخية لوطنية الشابي، بكلّ ما يفهم من معنى لهذين النوعين من الدراسات الأدبية.

وأعترف أيضا أن هناك نواقص معيّنة في هذا الكتاب ولكنّني لم أجهل ذلك أو أتعمّده، وإنّما هو بسبب فقدان كثير من المراجع والتحقيقات التي لا يمكن أن تتاح لي أو أظفر بها إلاّ بتونس نفسها. ورغم أنّني أحد أبناء تونس الخضراء إلاّ أنني أعيش بعيدا عنها، محروما من كثير مما أحتاج إليه فيها. وعسى أن أستدرك ذلك كلّه يوم يتاح لي أن أعود لوطني الصغير، فأجد كلّ ما كنت أفتقده وأنا بعيد عنه، ويومئذ سيعاد طبع هذا الكتاب في صورة أشمل وأدقّ ممّا هو عليه الآن.

وثمّة ملاحظة أخرى، أحبّ أن يعرفها القارئ قبل أن يمضي معي إلى صفحات الكتاب، وهي أنّه سيجد فيه استطرادات وجولات أدبيّة ووجدانية، قد لا يراها ذات صلة وثقى بموضوع الكتاب(١)، ولكنّه لن يملّها أو يستثقلها، لأنّها في الحقيقة والواقع ترتبط بالفكرة العامّة التي يهدف لها الكتاب، وتهمّ بوجه خاصّ القارئ العربيّ في تونس.

---

١ منها وبصفة خاصة فصل عن الطّاهر الحدّاد، وقد حذفته في الطبعة الثانية والثالثة وما بعدها.

ومهما يكن من أمر فإنّني أكرّر مرة أخرى بأنّ هذا الكتاب محاولة لفتح الطريق وليس تعبيدا له أو إضاءة فيه.

وكلّ ما أطمح إليه هو أن ينتهي القارئ إلى ما انتهيت إليه، وأن يؤمن معي بأنّ الشابّي لم يكن شاعرا فحسب، ولا رائد الشعب التونسيّ في كفاحه ونهضته فقط، بل هو فوق ذلك بدء تاريخ وقاعدة مجد ستظلّ الأجيال تذكره في هالة من التمجيد والإكبار، ما بقيت الحياة وبقي للإنسان تاريخ وضمير.

أبو القاسم محمد كرو

بيروت 1954/8/25م

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

كفاح الشابي
أو
الشعب والوطنية في شعره

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

ميلاد الشابي

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

لقد مضى الآن نصف قرن على ميلاد الشاعر العبقريّ الفذّ أبي القاسم الشابّي.

ولكنّ ذكرى ميلاده هذه تمتزج بَسَمَاتُ أفراحها بملامح الكآبة ودموع الحزن والأسى، وذلك أنّ الشاعر قد مات، وهو بعد شابّ لم يتجاوز ستّة وعشرين ربيعا، فكان عمره بيننا لحظات قصيرة كأعمار الأزهار، ما إن تشرئب للهواء وللنور حتى تمتدّ لها يد القدر فتقتلعها، وتختصر أيامها، وهي بعد برعم لم يتفتح وحياة لم تكتمل.

ورغم قصر السنوات التي عاشها الشابّي بيننا، فقد غنّى للإنسانية أروع الأغاني وأعذبها، وترك تراثا يزداد مع الأيام قيمة وارتفاعا، حتى غدا به الشابّي في مدى ربع قرن فقط أعظم شاعر أنجبته الأمة العربيّة في عصرها الحديث.

لقد ولد الشابّي عام 1909 ومات عام 1934 ونحن اليوم عام 1960. وبذلك قطع الشابّي مرحلتين من سير الزمان الأبدي : مرحلة نصف قرن على ميلاده، ومرحلة ربع قرن على وفاته. فهل مات الشابي حقّا؟ وهل فات كما تفوت ملايين الأحياء إلى عالم غامض مجهول، تحفّ به الجهالة، ويغمره النسيان؟

لا.. لا.. إنّ الشابّي لم يمت ولن يموت.. وإن دُفن جثمانه في أعماق الثرى، وغاب كيانه المادّي عن أبصارنا.

وكيف يمكن أن يموت، من عاش قيثارة تتغنّى، وزهرة تتضوّع، وينبوعا يفيض بالسحر والعطر والإلهام؟!

المكتبة الوطنية التونسية

كيف يمكن أن يموت من قال :

سأعيش رغم الدّاء والأعداء كالنسّر فوق القمّة الشمّاء

كيف يمكن أن يموت من علّمنا أغاني الحياة، وأنار طريق الشباب بالحبّ والإيمان والنّضال؟

لا.. وألف مرة لا..، إن الشابّي لم يمت يوم 9 أكتوبر 1934. وإنما ولد من جديد.... ولدت حياته الباقية وولد خلوده العظيم.

وإذن فنحن... نستقبل اليوم الذكرى الخمسين لميلاد الشابّي في دنيا الفناء، ونستقبل أيضا الذكرى الخامسة والعشرين لميلاد الشابّي في عالم الخلود... ذلك الخلود الذي كان الشابي يحترق شوقا إليه، ويسعى جاهدا بقلبه الطّموح، وخياله الخصب، وشعوره الملتهب، ليبلغ سفح جبله المقدس، فإذا به يحلّق نسرا جبارا فوق قمّته الشامخة، وإذا بالشابي روح سماويّ يرفرف فوق كلّ الرؤوس، وآية خارقة في حياة البشر. وإذا بالشاعر يبني مجد أمة، ويصنع تاريخ شعب، ما كان شيئا مذكورا في عالم الأدب اليوم، لولا أن هتف به من أعماقه في حرارة وإخلاص يدعوه للنهوض من نومه في أحضان الماضي وكهوف الظلام، ليسير مع قافلة الحياة المحفوفة بالمجد والزهور :

خلقت طليقا كطيف النسيم وحرّا كنور الضحى في سماه
تغرّد كالطير أنّى اندفعت وتشدو بما شاء وحي الاله
فمالك ترضى بذلّ القيود وتحني لمن كبّلوك الجباه؟
وتقنع بالعيش بين الكهوف فأين النشيد وأين الأياه؟
ألا انهض وسر في سبيل الحياة فمن نام لم تنتظره الحياه

ولما لم يستجب له شعبه، لأنّ ظلمات السنين كثيفة في النفوس وقيود الرجعية قوية خانقة، صاح منددّا بالخوف والاستسلام لتلك الظلمات الباغية وتلك القيود الثقيلة :

أنت يا كاهن الظلام حياة ... تعبد الموت، أنت روح شقيّ
كافر بالحياة والنور لا يصغي ... إلى الكون قلبه الحجريّ
أنت دنيا يظلّها أفق الماضي ... وليل الكآبة الأبديّ
والشّقيّ الشّقيّ في الأرض شعب ... يومه ميّت وماضيه حيّ

وفي هذه الصيحات كلّها لم ينس الشابّي حقيقة شعبه النقية وجوهره الطاهر، فكان يؤمن دائما بأنّ في شعبه حياة زاخرة لكنّها تحت الظلمات والسجوف، وفي شعبه قوة خارقة، لكنّها غير موجّهة نحو النور والزهور والصعود إلى أعلى :

أيّها الشعب أنت طفل صغير ... لاعب بالتراب والليل مغس
أنت في الكون قوّة لم تسُسْها ... فكرة عبقريّة ذات بأس
أنت في الكون قوة كبّلتها ... ظلمات العصور من أمس أمس

وما كان الشابي ليكفر بالشعب رغم ذلك كلّه، فهو ينظر في تفاؤل وإيمان إلى المستقبل الباسم، الذي سيكون فيه الشعب سيّد نفسه، وحربا على الرجعية والظلم والخنوع :

إنّ ذا عصر ظلمة غير أنّي ... من وراء الظلام شمت صباحه
ضيّع الدهر مجد شعبي ولكن ... ستردّ الحياة يوما وشاحه

ولقد تحققت اليوم نبوءة النبي المجهول، فأصبح شعبه يسير في موكب الحياة بقوة وإيمان واعتزاز، وقد ظفر بحريته وكرامته واستقلاله.

لقد عاش الشابي في بيئة محافظة، وتعلّم في معاهد دينية وحفظ القرآن الكريم، ودرس كتب الفقه والنحو والبلاغة القديمة... لكنّه لم يهضم منها إلاّ ما نفع شخصيته الأدبية، وغذّى شاعريته المتفوقة الثائرة، وهكذا ظهر في مجتمعه وبيئته ومعهده، وفي كلّ مكان من بلاده غريبا أكثر من الغرابة ومستنكرا أشدّ من المنكر:

يا صميم الحياة كم أنا في الدنيا ... غريب أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد ... فؤادي ولا معاني بؤسي
في وجود مكبّل بقيود ... تائه في ظلام شكّ ونحس
فاحتضنّي وضمّني لك بالماضي ... فهذا الوجود علّة يأسي

ويضيق بالناس الذين حوله، وهم يعيشون من حطام الماضي ونبش القبور، ويشربون من نبع السخافة والإثم والشّرور. يضيق بهم لأنّهم لا ينصفون الحيّ بينهم:

لا يعبد الناس إلا كلّ منعدم ... ممنّع، ولمن حاياهم العدم
حتى العباقرة الأفذاذ حيّهم ... يلقى الشّقاء وتلقى مجدها الرّمم
الناس لا ينصفون الحيّ بينهم ... حتى إذا ما توارى عنهم ندموا
الويل للناس من أهوائهم، أبدا ... يمشي الزّمان وريح الشرّ تحتدم

وفي مثل هذه الأجواء المتعفّنة والبيئة المتحجّرة، لم يكن ممكنا أن يعيش شاعرنا... فمات، أجل مات: مات وهو كالزهرة الغافية بأحلام الحياة، وكالفراشة الثملى بأضواء الشمس، الراقصة فوق بساط الربيع، المتغنّية

بأغاني الحبّ والطبيعة والشباب، مات الشابي، مات ولمّا يتجاوز ستّة وعشرين ربيعا. مات وفي قلبه أحلام الإنسانية بأسرها، وعلى شفتيه أناشيد الحياة بأكوانها وعوالمها.

مات ليقوم بتجربة جديدة – وأيامه كلّها تجارب حيّة – هي تجربة الموت.

مات في سبيل شوق عارم ملحّ، ظلّ يرافقه أربع سنوات كاملة، ويدفعه وراء العالم المسحور. ذلك العالم الذي تحدّثت عنه الأديان، ووصفته الأساطير، وتغنّى به الشعراء. ومع ذلك فنحن نجهل عنه كلّ شيء، وإنما فقط نحن نمضي نحوه باستمرار، جيلا بعد جيل، وإنسانا إثر إنسان، لكنّا لم نعرف من سيرنا لا البداية، ولا حتى النهاية.

نحن نمشي، وحولنا هاته الأكوان تمشي، لكن لأيّة غايه؟!
نحن نشدو مع العصافير للشمس، وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت، ولكن ماذا ختام الرواية؟
هكذا قلت للرياح فقالت : سل ضمير الوجود كيف البداية

ولقد راح الشابي يسأل ويسأل، لكن دون جدوى. وهل ثمّة من يعرف سرّ الحياة حتى يجيب عن الموت؟

كلّنا يأتي من عالم مجهول، وكلّنا يمضي إلى عالم مجهول، ولكن كيف نأتي ونمضي، ولماذا نأتي ونمضي؟ لا أحد يعرف السبب، ولا أحد يمكنه أن يجيب. إنها لفلسفة أعمق من الفلسفة، بل هي فلسفة فوق كلّ فلسفة.

وضاق الشابي بهذا الغموض، والضباب يحجب عنه حقائق الكون وكنه الوجود، وضاق بهذا الجهل المستحكم الذي يملأ الفضاء، ويعشّش في العقول، وضاق بهذه الحياة التافهة الرخيصة التي تعيش لها الناس بأعمارهم الفارغة المملّة، ضاق بكلّ ذلك، فأقدم بكلّ شوق وتوق، وبكلّ حنين ورغبة على اقتحام الأبدية وارتياد العالم المجهول الذي تقف تجاه سرّه الأكبر جميع العقول حائرة بلهاء.

وتحققت أمانيه في غمرة من الفرح العبقريّ بسكوت جراحه واختفاء شجونه، فأقبل على الموت باسما قرير العين، لأنّ نداء الأبدية ملأ قلبه أناشيد، ونور الصباح – صباح الخلود– طهّر نفسه من ظلمات الأرض :

اسكني يا جراح ... واسكتي يا شجون
مات عهد النّواح ... وزمان الجنون
وأطلّ الصباح ... من وراء القرون

***

من وراء الظلام ... وهدير المياه
قد دعاني الصباح ... وربيع الحياه
يا له من دعاء ... هزّ قلبي صداه
لم يعد لي بقاء ... فوق هذي البقاع

ثم سار الشابّي نحو شاطئ الأبدية، في فرح كبير بالحرية المطلقة، وغبطة جارفة بالفجر الجديد، فاستقبلته عذارى الشعر وبنات عبقر بالأزهار والألحان، احتفالا بميلاده الجديد في عالم الخلود...

وهناك ركب الشاعر زورقه المسحور، ونشر قلاعه البيضاء ورفع يده مودّعا عالمه الصغير: عالم الآثام والبغضاء، ثم انساب في خضمّ الأبدية العميق، وكأنّه حلم ليلة ساحرة، أو رؤيا جمال عبقري:

الـــوداع الـــوداع ... يـا جـبـال الـهـمـوم
يـا ضـبـاب الأسـى ... يا فـجـاج الجـحـيـم
قـد جـرى زورقـي ... فـي الخـضـمّ الـعـظـيـم
ونـشـرت القـلاع ... فـالـوداع الـوداع

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

كفاح الأديب

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

إنّ تاريخ البشرية كلّها منذ عرف الإنسان على هذه الأرض حتى يومنا هذا... ليس إلا كفاحا دائما ونضالا مستمرا.. كفاح من أجل البقاء، كفاح من أجل العيش، وكفاح ضدّ الطبيعة وعواملها القاسية، وكفاح ضدّ الحيوانات الضارية التي كانت تعوق الإنسان عن الحصول على غذائه، بل تجعل منه غذاء لنفسها، كفاح ضدّ الخرافات، ضدّ الجهل، ضدّ الأمراض، ضدّ الشقاء والبؤس، ضدّ الاستغلال والاستعمار، ضدّ الموت والحروب، ضدّ الجمود والرجعية، ضدّ الظلم بأنواعه والحرمان بأشكاله.

أجل، لقد كافح الإنسان منذ خلقه الله فوق هذه الأرض، ومازال يكافح من أجل الحياة، حياة أفضل وعدالة أشمل، وهناء أوفر ورخاء دائم.فالكفاح هو قصّة الإنسان النبيلة، هو تاريخه الباسل، هو أسلوبه المجيد، هو سرّ بقائه وتقدّمه وانتصاره، هو إيمانه المشرق في ماضيه، وأمله المستنير في الحاضر والمستقبل. وما دام الكفاح هو قصّة الإنسان، فإنّ من لم يكافح ليس له قصّة وليس له تاريخ، وبالتالي هو ليس إنسانا بأتمّ ما تعنيه هذه الكلمة. والكفاح بهذا المعنى هو شرف الإنسان ومجده، وهو كرامته ونبله، هو إنسانيته الواعية، وضميره المتيقّظ وعقله الناضج. وأيّ امرئ يدرك هذه الحقيقة وهذا الجلال والمجد، ثم لا يكون إنسانا؟

والأديب – شاعرا كان أم كاتبا – هو إنسان أيضا، إنسان إذا وعى إنسانيته، واستيقظ ضميره، وحمل على عاتقه شرف النضال ومجد الكفاح من أجل الآخرين، أي من أجل شعبه وفي سبيل وطنه. أما إذا انطوى على نفسه،

واكتفى بأحلامه، وانصرف عن آلام الجماهير وآمالها، فإنه لن يكون جزءا من قصة الإنسان، ولا كلمة تعتز بها في تاريخها مهما قرعت له الطبول، ونفخت المزامير.

في القديم كان الأديب يعيش لنفسه فقط، فيقول الشعر ليكون شاعرا، أو ليستجدي به الرزق عن طريق المدح والهجاء. فإن كان كاتبا سعى جهده ليكون في ديوان الخليفة يكتب له الرسائل ويعيش في كنفه، يحرق عبقريّته بخورا ومواهبه نفاقا. فإن لم يكن هذا ولا ذاك انصرف إلى كتبه، وانفرد بعواطفه، فعاش أنانيّا لنفسه يجترّ ذاته، ويمسخ ذوات غيره من الشعراء أو الكتّاب أمثاله.

خذوا مثلا شاعرا عبقريّا كالمتنبي : كيف عاش هذا الرجل وكيف حرق عبقريته الباهرة بخورا عند أقدام العروش، وقضى حياته الغالية ينظم المدائح الرخيصة، ويسجّل تاريخ فرد واحد..في مبالغة مكشوفة وكذب واضح، بينما الملايين من أفراد أمته تأكل الحرمان، وتعيش على الصبر الكئيب والمسغبة الحزينة وتتعزى بأفيون الغيبيات القاتل، وثواب الله في جنة الخلد!!

أما اليوم فلم يعد الأدب وسيلة للترفيه عن الخلفاء والسلاطين ولم يعد كذلك تلاعبا بالمعاني والألفاظ لتسلية الكسالى أو تزجية لأوقات الفراغ التي يعيشها المتخومون والعاطلون، بل هو واجبات والتزامات معينة تجاه الحياة، ونحو المجتمع القوميّ بخاصة والإنسانيّ بوجه عامّ.

أما الأديب فلم يعد مهرّجا كبيرا وسيلته الألفاظ الأنيقة والحكم البديعة والخيال الصناعيّ، بل هو اليوم مواطن –

له اختصاص معين – تُفرض عليه واجبات المواطنة قبل حقوقها، وعلى هذا وجب أن يقدّم الأديب زكاة صالحة من حياته ومواهبه لوطنه وشعبه، وذلك عن طريق المشاركة الفعلية بأدبه في رفع مستوى الحياة، وتحقيق القيم الرفيعة كالخير والعدل والحرية لأفراد الشعب. وهذا لا يتمّ له إلا بالتفاعل مع البيئة، والتعبير عن آمالها وآلامها، وأخذ الموحيات منها.

أما الفرار من الحياة العامة والانطواء على النفس في البروج الفخّارية، والادّعاء بأن الأدب فنّ، وأنّ هذا الفن غايته الجمال الفنّي فقط، وأنه لهذا لا ينبغي أن يطلب من الأديب واجبات معينة، لأن الواجبات قيود والفنّ حرّ لا يحتمل القيد.. أما هذه المزاعم كلّها فهي جميعا كلمات حقّ ولكن أريد بها باطل، إذ أننا لا نطالب الأديب أن يتخلّى عن مواهبه أو مشاعره الخاصة، ولا نريد فرض نمط من التفكير أو أسلوب من التعبير عليه، وإنما نريد من الأديب أن يعيش عصره، ويحيا مع شعبه، فيتألم لآلامه، ويفرح لفرحه، ويشاركه في كفاحه وصموده ونهضته واندفاعاته، ويساهم في بناء وعيه لنفسه ووعيه لحقوقه وواجباته، وبذلك يكون الأديب قد قام بواجبه كمواطن وكإنسان كامل الشعور بالمسؤولية الوطنية والإنسانية. ولكي يصدّقنا هؤلاء الأدباء العاجيّون – أو بالأحرى الأنصار المنخدعون بحججهم– لكي يصدّق هؤلاء أننا لا نريد أن نفرض قيودا على مواهب الأديب، ولا حصره في نطاق محدود ومرسوم، وإنما فقط نريد منه أن يكون إنسانا يتفاعل مع ذاته ومع الحياة والمجتمع، فيعبّر عن الجميع بصدق وشجاعة.. لكي يصدّقوا موقفنا هذا.. نقدّم

مثلا بل دليلا واضحا عما نعلنه من رأي، ونناصره من مذهب :

لقد ترك فقيدنا الشابّي ديوانا كبيرا فيه ألوان شتّى من الشعر، فيه مثلا قصيدة (إرادة الحياة) التي مطلعها :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ للّيل أن ينجلـــي ولا بدّ للقـيد أن ينكســر

وفي ديوانه أيضا قصيدة (صلوات في هيكل الحبّ) التي مطلعها :

عذبة أنت كالطفولـة كالأحـــلام
كاللّحن كالصّباح الجديـد
كالسماء الضحوك كاللّيلة القمراء
كـالورد كابتســام الوليـــد

إن كلّ الأدباء والمتذوّقين للشعر يعترفون بأنّ هاتين القصيدتين من أعظم ما قاله الشابّي، بل ما قاله الشعراء العرب قديمهم وحديثهم على حد سواء، ويعترفون أيضا بأن القصيدتين بالغتان حدّا كبيرا من الإتقان الفنّي والإجادة الشّعرية، سواء من ناحية الموضوع أو المعاني أو الألفاظ أو الموسيقى أو الإيحاء الشعري أو الخيال، أو قوة التعبير وسلاسته، أو غير ذلك، هذا مع اختلاف الموضوع فيهما اختلافا بيّنا: فالأولى من الشعر السياسي الوطنيّ، والثانية من الغزل الذاتيّ الانفعاليّ المحض، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا نعظّم الشابّي ونعجب به، ونكبر

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE المكتبة الوطنية التونسية

شاعريته في القصيدتين، ونطرب ونعتز بهما معا سواء بسواء. في حين أنّ الأولى قد ساهمت مساهمة فعّالة في إيقاظ الشعور الوطني، وبعث الإيمان في النفوس بحقّ شعبنا في الحرية والاستقلال والحياة الكريمة العادلة، فكانت نشيد الملايين في جميع مواقف الكفاح والبطولة التي خاضتها الشعوب العربية الباسلة، حتى انتصرت بكفاحها وانتزعت بإرادتها استقلالها. وهكذا لعبت كلمات (إذا الشعب يوما أراد الحياة) دورها الخطير في جعل شعبنا يريد، ثم يحقق ما يريد.

أما القصيدة الثانية فرغم جمالها وجلالها فإنّها وقفت واجمة خجلى تتفرج على معركة الحياة التي خاضها شعبنا، ولم تستطع أن تبث فيه نفسا من الإيمان بالحقّ أو الثقة بالمستقبل.

إننا نجلّ الشابّي ونعظّمه في القصيدة الأولى، كما نلاقيه بنفس الإجلال والتعظيم مع القصيدة الثانية، لأننا نعرف حقّه في الثانية وواجبه في الأولى، أمّا أولئك الذين يريدون أن يستمرّ الأدب على القيام بوظيفة الغانيات ومجالس النكتة والفكاهة والنوادر... فإننا ننصحهم بأنّ من الخير لهم أن ينصرفوا عن الأدب إلى تعاطي مهنة أخرى من تلك المهن القديمة التي لم تتطوّر، أما الأدب فقد تطوّر وانطلق إلى عالم جديد.

قصّة الشّعر العربي

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

كان الشعر عند العرب، منذ وجد الشعر عندهم، أي منذ الجاهلية الأولى، مرآة حياة الفرد وصدى مفاخر القبيلة. لذلك كان لا يحفل بالمجرى الإنساني الرفيع لحياة الإنسان، وكان لا يهتمّ بالآلام والآمال البشرية العامة. وكان إحساسه بالحياة في أسمى معانيها، وبالمثل العليا في مطمح الكادحين إليها لا يزيد عن خواطر عابرة يرسلها الشاعر كالمثل السائر، أو الحكمة البليغة التي تنشأ عند الناس بالتجارب المتلاحقة لا بالتفكير الفلسفي.

وهذا تماما ما نجده عند زهير بن أبي سلمى وعند طرفة بن العبد، أو لدى الشاعرة الخنساء، وكذلك عند امرئ القيس والسّموءل، لهذا كانت القصيدة تكوّن وحدة في القافية والوزن لا في الفكرة والشعور.

أما بعد ظهور الإسلام، وانتشار العرب في أنحاء العالم القديم واختلاطهم بأقوام حضارات قديمة، وقيامهم بالترجمة والبحث والتأليف في عهد العباسيين ببغداد وفي الأندلس وشمالي إفريقيا، وما تبع ذلك من انتقال العرب من حياة البداوة والترحال إلى حياة السيادة والحكم وعيش الاجتماع والمدن، وظهور أدب جديد يلائم الحياة الجديدة ويتّصل بأفكار وعقول جديدة، أما بعد ذلك كلّه فقد تطوّر الشعر عندهم تطورا ملحوظا، لكنه لم يصل إلى ما كان ينتظر أن يصل إليه من أمة جمعت أطراف الدنيا القديمة تحت سلطانها، وثقافات البشر في عقول أبنائها.

وإذا كان العرب قد أبدعوا أيام الشباب حضارتهم الإسلامية في المشرق والمغرب، أبدعوا في الفلسفة والعلم، في الدين والأخلاق، وفي الصناعة وبعض الفنون.. فإنّ الأدب عامّة والشعر منه بوجه خاص قد احتفظا بروحهما القديم، فلم تتغيّر أهداف الشعر ولا رسالة الشاعر، وظلّ الشاعر مهّرجا كبيرا وسيلته الألفاظ الأنيقة والحكم البديعة. وظلّت أهداف الشعر محصورة في أن يجيد الشاعر مطلع القصيدة ونهايتها، وأن يحسن التخلّص في الانتقال من الغزل الى المديح إلى الرثاء، وأن يحرز قصب السبق في المبالغة والكذب، حتى كان الشعر الجيد عندهم أكثره كذبا، وهذا في قولهم : «أعذب الشعر أكذبه»؟!

مفهوم الشعر

ومن المؤسف حقا أنهم لم يعرّفوا الشعر إلا بقولهم : الشعر هو الكلام الموزون المقفّى، وهو تحديد لفظيّ جامد، يتعلّق بالتركيب والصياغة، ولا يتّصل بالجوهر أو الروح. فضلا عن الغاية السامية التي ينبغي أن يتّجه إليها الشعر، ويهدف لها الشاعر.

وبالرغم من ذلك كلّه فقد وجدنا محاولات كريمة للتحرّر من هذه المفاهيم المنحرفة، والطرائق المحنّطة.. فقد ثار عليها بشار وأبو نواس، وكذلك فعل المعريّ وأبو الطّيب المتنبّي، وإن حرق هذا الأخير عبقريته الباهرة بخورا عند أقدام العروش، وقضى حياته الغالية ينظم المدائح الرخيصة، ويسجّل تاريخ فرد واحد في مبالغة مكشوفة وكذب واضح،

بينما الملايين من أفراد أمته تأكل الحرمان، وتعيش على الصبر الكئيب والمسغبة الحزينة، وتتعزّى بأفيون الغيبيات القاتل، وثواب الله في جنة الخلد.

ولست أريد هنا أن أكشف الغطاء عن مآسي أدبنا العربيّ القديم، وأن أحمّله من المسؤولية فوق ما يطيق، فقد كان التطوّر الذي نفهمه اليوم ونريده، بعيدا عن أفهام الشعراء وتفكيرهم ووعيهم في تلك العصور.
وحسبي أن أنبّه الأذهان إلى أنّ هذه الحالة قد استمرت حتى القرن التاسع عشر، بل حتى يومنا الحاضر عند بعض الشعراء، وقد زادتها عصور الظلام والاستبداد التي مرّت بالأمة العربية منذ القرن السابع الهجري حتى يوم الناس هذا، توغّلا في انحرافها، وبعدا عمّا نريده لأدبنا، ونطمح إليه، من تجدّد وسموّ واتّصال بالحياة وبالمجتمع.

فجر جديد

ولكنّ القرن التاسع عشر لم يمرّ دون أن يترك له أثرا واضحا في شعرنا الحديث. سار على مهل، ولكنّه بعث فيه حياة جديدة ودما حارّا، ازدادا مع الأيّام قوة وتدفقا، حتى صارا اليوم تيّارا جارفا يقود شعرنا العربيّ المعاصر نحو آفاق جديدة لم يعرفها أدبنا العربيّ من قبل. وطبيعيّ أنّ هذا التيار لم يكن يسير من تلقاء نفسه، بل كانت له ظروفه وأسبابه، وكانت له طرقه وأهدافه، وكان له قوّاده وروّاده السابقون الذين شقّوا لنا الطريق بتضحيات جسيمة، وعبّدوها بجهاد فكريّ وأدبيّ كبير.

وإذا كان حتما أن نذكر شيئا في هذه الالتفاتة العارضة، فإنّه سيكون ذكر أولئك الروّاد الخالدين الذين شقّوا الطريق، ولقّحوا الخيال العربي الحديث بصور وأساليب لم يعرفها من قبل، فغدا خيالا شعريا صحيحا بعد أن كان يرزح تحت أعباء الاستعارات والتشبيهات والكنايات والمجازات اللفظية، وما إلى هذه من ضروب الخيال الصناعيّ كما يسميّه فقيدنا الشابّي.

وإنّه لمن العرفان لهؤلاء الروّاد، والإشادة بذكراهم الخالدة، أن نذكر أسماءهم في هالة من التقدير والتعظيم، على اختلافهم في الاتجاه والعمل، وتباينهم في الوسيلة والغاية، ولعلّني لا أحيد عن الصواب إن قلت : إنّ في طليعتهم خليل مطران وأحمد زكي أبا شادي والرصافي وجبران وايليا أبا ماضي وأبا القاسم الشابي وغيرهم مّن الروّاد المعاصرين، من عاش منهم في القرن التاسع عشر، كنجيب الحداد وأحمد فارس الشدياق ومحمود قبادو(١)، ومن عاش في القرن العشرين، كالذين ذكرت أسماءهم سابقا، وهم كانوا، وما زالوا موزّعين بين البلاد العربية التي هي الوطن الأمّ للجميع، وبين المهاجر الأمريكية بقسميها الشماليّ والجنوبيّ.

ولعلّ أبرز ظاهرة في شعرنا العربيّ الحديث هي تجدّد

(١) شاعر تونسي(1814-1871)

مفهومه واتصاله بالحياة، وتعبيره عنها وعن المجتمع.

وإنّه ليهمّنا هنا موقف شعراء الخضراء من هذا كله، ومركز الشابي منهم جميعا، لنعرف الدعامة الأولى التي نريد أن نقيم عليها غاية هذا الكتاب.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

نهضة الثقافة العربية

المكتبة الوطنية الرئيسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

إنّ مؤرّخي الأدب العربي يقسمون أدبنا- منذ أقدم عصوره حتى اليوم - إلى الأقسام الكبيرة التالية: (العصر الجاهليّ)، (العصر الأمويّ) ثم (العصر العباسيّ) بعهوده المختلفة، ثم عصر الانحطاط، ثم العصر الحاضر، وهم يجعلون بدايته منتصف القرن التاسع عشر على وجه التقريب.

وأول ما يلاحظه المتتبّع لهذا التقسيم أنّه يجاري التقسيم السياسيّ لتاريخ العرب، أو على الأصحّ لتاريخ الخلافة الإسلامية، وبعبارة أدقّ لتاريخ الأسر الحاكمة التي تولّت الحكم في الشرق العربيّ والإسلاميّ كلّه باسم الخلافة الدينية.

ورغم ما في هذا التقسيم من خطإ كبير، فإنّه ليس من قصدنا إصلاحه هنا، ثم إنّ مؤرّخي الأدب يضيفون بعد ذلك قسما خاصا عن الأدب في الأندلس، ويتجاهلون تماما هذا الشمال الإفريقيّ كلّه من حدود مراكش على المحيط الأطلسيّ إلى حدود مصر الغربية، كأنّ هذه الرقعة الكبيرة من الأرض ليست داخلة في خريطة العالم العربي قديما وحديثا، وكأنّ سكان هذه الرقعة الشاسعة لم يقدّموا إلى الحضارة الإنسانية والفكر البشريّ، والأدب العربي بوجه خاصّ ما يلفت انتباه كاتب أو باحث أو مؤرّخ، وكأنّ هذه القرون الثلاثة عشر التي مرّت على الإسلام والثقافة العربية في هذا الشمال الإفريقيّ، لم تنتج شاعرا أو كاتبا أو مفكرا واحدا يقف إلى صفّ أصغر من يؤرّخون له من أدباء الشرق ورجاله.

أما الملاحظة الثانية فهي هذا الفراغ الزمنيّ الكبير الذي يمتدّ من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، إلى القرن الثالث عشر الهجريّ أو التاسع عشر الميلادي. وهم يطلقون على هذا الفراغ الزمنيّ الكبير اسم الفترة المظلمة أو عصر الانحطاط والتأخّر، ولا يرون فيها إنتاجا فكريّا أو أدبيّا جديرا بالبحث والتسجيل سوى لمحات سريعة، تشعّ، كالبرق الخاطف في الليل الداجي الكئيب.

حتى إذا طلع القرن التاسع عشر وحطّت جيوش نابليون أثقالها بأرض مصر، وتأسّست معاهد الإرساليات الأجنبية في سورية ولبنان، وقامت دولة محمد علي بوادي النيل، عاد الشرق يستيقظ من سباته الطويل، ويستقبل في ذعر وعدم طمأنينة هذا الغزو الثقافيّ الدخيل، ويرى فيه شرّا لا بدّ منه. وقد كان العرب (المسيحيون) في طليعة من تقدّم إلى الثقافة الغربية، لما لهم من العلاقات القديمة بروما مركز الديانة المسيحية. ولكنّ المسلمين لم يتردّدوا بعد أن رأوا ما أفاده إخوانهم من هذه الثقافة، فهجروا المدارس التي أنشأها الترك، وفرضوا فيها لغتهم على المتعلمين، وأقاموا – أي المسلمين – الجمعيات العلمية والتعليمية في سورية ولبنان، ولكنّهم جميعا، مسلميهم، ومسيحيّيهم، اجتمعوا على رعاية الثقافة العربية (1) وبعثها من جديد، فكان أن ازدهرت الآداب العربية وتيقّظ الذهن العربيّ والروح العربية، وبدأ العرب يشعرون بالحياة تدبّ في عقولهم، وبدماء قوية نشيطة تسري في شرايينهم، فأخذوا يتلقّون

(1) «تيارات أدبيّة» ص159

منتجات الحضارة الغربية فكرية ومادية، بسرعة مناسبة لأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، فنشط الإنتاج العلميّ والثقافيّ والأدبيّ بوجه خاصّ. وتميّز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بشمول حركة الانبعاث كافّة الميادين من جهة، وانتشارها في أقطار عربية أخرى غير سورية ولبنان ومصر من جهة أخرى.ويمكننا أن نسجّل هنا في غير ارتياب ولا شكّ أنّ أهمّ العوامل التي أدّت إلى هذه اليقظة المتوثّبة، والتي تحوّلت في القرن العشرين إلى نهضة شاملة كاملة هي باختصار ما يأتي :

1 الاتصال المباشر بالغرب عن طريق الإرساليات العلمية الأجنبية.

2 البعثات العلمية التي أرسلتها مصر وتونس إلى الأقطار الأوربية، ونشاط أفراد هذه البعثات بعد رجوعهم في حقلي الترجمة والتأليف، وكذلك في حقل التدريس.

3 دخول المطبعة إلى الأقطار العربية التي سهّلت انتشار الثقافة، ويسّرت الكتب للجميع، وبعثت تراث العرب من مراقده في الخزائن والمكتبات، وجعلته في يد كلّ قارئ بثمن زهيد.

4 قيام حركة واسعة لترجمة عدد كبير من المؤلّفات العربية أدبية وعلمية وثقافية.

5 نشوء الصحافة العربية في كلّ من مصر وسورية ولبنان وليبيا وتونس كنتيجة عملية من دخول المطابع لهذه الأقطار، وقد ساهمت الصحافة في إحياء الأدب وتغذية العقول بأفكار جديدة، كما خلقت أساليب وتغييرات جديدة في النثر العربيّ، وشجّعت الأقلام والأدباء على الإنتاج المساير لروح الوعي الجديد فكان للشعر نصيبه الأوفر وحظّه المرموق.

وقد كان من أبرز رجال هذا العهد أبناء عائلتي اليازجي والبستانيّ في لبنان، ورفاعة الطهطاوي في مصر،وخير الدين ومحمد السنوسي والبشير صفر في تونس، وهناك عالم وأديب مجدّد كبير، جاب البلاد العربية، وتقلّب في مناصب إقليمية كثيرة في لبنان وتونس واسطنبول، وترك مؤلّفات كثيرة لا تزال حتى اليوم غذاء شهيّا وموردا عذبا للأدباء والباحثين ومؤرخيّ عصر الانبعاث، وأعني به المرحوم أحمد فارس الشدياق الذي كان مسيحيّا، ثم أسلم في تونس وأقام بها فترة من حياته، بعد أن زارها مرتين، ثم بقي على صلة ببعض وزرائها خلال إقامته بالآستانة.

ولا يمكننا أن ننسى هنا الجهود العظيمة التي بذلها جمال الدين الأفغانيّ والإمام محمد عبده وتلاميذهما في سبيل الإصلاح، وإيقاظ النفوس الغافية في أحضان الانحطاط، واستمرائها حياة الجمود والكسل، واجترارها قشور الماضي وفتات العصور المظلمة الكئيبة، فكان لدعوتهم الجريئة أثر بالغ الأهمية في نهوض العرب وانبعاثهم.

وقد استمرّت الحركة هكذا حتى نكب العالم بالحرب العالمية الأولى، فكان جانب كبير من بلاد العرب مسرحا لها، ثم حدث صراع بين العرب والترك نتيجة للوعي القوميّ الذي انتشر في العرب بحكم تلك العوامل السابقة، وبحكم عوامل أخرى يضيق المجال عن عرضها هنا. فإذا انتهت الحرب كان هناك شعراء يتغنّون بأمجاد العرب، وينادون بالإصلاح في كلّ الميادين، ويعبّرون عن مستحدثات الحضارة الجديدة

بقصائدهم، من هؤلاء الرصافي والزهاوي في العراق وحافظ ابراهيم وشوقي وخليل مطران في مصر، وشعراء المهجر في أمريكا وشعراء آخرون في جميع الأقطار العربية.

وهنا يلاحظ الباحث في الشعر العربيّ دخول عناصر جديدة في تعبيره وموضوعاته، منها تعبيره عن الأوضاع السياسية والاجتماعية، ونقده اللاذع لها ونزوعه الكامل إلى التجديد، واتّصاله بالثقافات الأجنبية، ومحاولته الانطلاق معها في مسايرة وتقليد أول الأمر، ثم في ابتكار وخلق بعد ذلك. واتّسع أمر هذا كلّه في فترة ما بين الحربين، حيث زاد إقبال الناس على اللغات والثقافات الغربية، وحيث اتّسعت حركة الترجمة، وتعدّدت ألوانها، وحيث ظهرت المعاهد العالية والجامعات الحديثة، وحيث ظهر أدباء جدد تشبّعوا بالثقافتين العربية والأجنبية، فحملوا بإخلاص مشعل البعث والتجديد، وقاموا بجهود عظيمة لإحياء التراث القديم، وتطهيره من متراكمات الجمود والشعوبية وخرافة الثور المقدس، وعرضوه على الأنظار ممحّصا منقودا، خيره وشرّه على السواء(١).

---

(١) يظهر ذلك في مؤلفات كثيرة مثل : «في الأدب الجاهلي» لطه حسين و«الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرّازق و«الخيال الشعري عند العرب» للشابي ، و«امرأتنا في الشريعة والمجتمع» للطاهر الحداد .

كما كان للشعر سوق كبيرة ازدهرت في العراق ومصر وتونس ولبنان. فحمل الرسالة المقدسة، رسالة التجديد والتحرير في كلّ هذه الأقطار، وفي غيرها من بلاد العرب روّاد كبار تحمّلوا وحدهم في جرأة وثبات عناء شقّ الطريق أمام الأجيال، فأوجدوا في الشعر العربيّ ألوانا لم يكن يعرفها من قبل، وارتفعوا به عن الأغراض التافهة والموضوعات المسفّة، وأوثقوا صلته بالحياة وبالمجتمع، فكان أعظم رجاع سجّل آلام الشعوب وآمالها، وتغنّى بأحلامها وأمانيها، وبارك انتفاضاتها ووثباتها. ولم يقتصروا على ذلك كله، بل حاولوا أن يسدّوا نقائص الماضي، فأوجدوا الملحمة القصيرة والمسرحية التاريخية والغنائية والاجتماعية، كما حاولوا القفز إلى السموات والأفلاك السابحة، فكانت كونيّات الرصافي وثورة الزهاوي في الجحيم ووصفيّات شوقي ومطران وغنائيّات أبي شادي التاريخيّة والاجتماعية والعاطفيّة.

وما إن أطلّت الحرب العالميّة الثانية حتى كان الأدب العربيّ بعامّة والشعر منه بوجه خاصّ قد استقبل مذاهب جديدة وتيارات فنية، أنتجها الغرب خلال القرون الثلاثة الأخيرة، فظهرت في شعرنا الرمزيّة والسرياليّة والواقعيّة والرومانتيكيّة وسواها من الاتّجاهات الغربية، ولا يعني هذا أنّها لم تكن بطابعها موجودة من قبل، وإنما يعني أنّها لم تكن تيّارا ساريا ومذهبا يعتنقه شاعر أو شعراء ويصدرون عنه في كل إنتاجهم.

وما كادت الحرب الثانية تنتهي حتى ظهر شعراء جدد، وظهرت شاعرات أيضا، وقد تميّز الجميع بطابع الثورة على القديم في ألوان الشعر وأوزانه، وفي تعابيره واتجاهاته. كما اتسع نشاط الترجمة والنشر، وظهرت محاولات كبيرة لتوجيه الفكر في اتجاهات معينة. وحدثت معارك أدبية خصبة وظهرت قوى تقدمية في الأدب وأحدثت بعض الكتب ضجّة بين المثقّفين، وزاد الاقتباس من الآداب العالمية، كما نشطت حركة إحياء التراث القديم، وأصبحنا نعيش نتيجة لذلك كلّه في أجواء نهضة حقيقية .

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

شاعر جبّار

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

لن أكون متطرفا مغاليا إن أنا أعلنت حقيقة ضخمة، قد لا يجرأ غيري على إعلانها تهيّبا أو شكّا في قيمتها، ولكنّني أقولها بملء فمي ومن أعماق اليقين المطمئن الآن في نفسي، وهي: أنّ تونس الخضراء لم تعرف في تاريخها الأدبيّ شاعرا يقف بحقّ بين الشعراء الكبار، ويحتلّ مكانة سامية في عالم الخلود بعد شاعرنا ابن هانئ إلاّ الشابّي، ذلك الشابّ الجسور الذي تحدّى كلّ الأوضاع الفاسدة والجبروت والطغيان، وهو لما يبلغ العشرين من عمره. ولم يكن ليفعل ذلك لولا الروح الذي يتوهّج في كيانه، والعبقرية الخارقة التي تملأ رأسه الصغير، ولولا ذلك الإحساس الجارف الذي يملأ قلب الملهمين من بني الإنسان، فإذا هم جبابرة يحلّقون فوق كلّ الرؤوس، وآية باهرة في حياة البشر، وأنبياء أو رسل في مذهب الحياة.

وإنّ أول إحساس واضح تضطرم به نفس العبقريّ هو إحساسها بالغربة بين بقيّة النفوس الخاملة الخانعة، والوادعة المستسلمة (استسلام العناصر غير العاقلة إلى مشيئة الليالي والأيام)، كما يقول الفقيد جبران. وهذه الغربة التي تحسّها نفس العبقريّ هي مصدر إلهامه ونبوغه، ومنبع إبداعه وإعجازه. ومن هنا كان الفارق كبيرا جدا بين الشابّي وبين شعراء الخضراء المعاصرين له. ذلك أنّ أكثرهم لم يألفه ولم يستطع فهم ما يعبّر عنه أو يرمي إليه.

وإذا كان حتما أن نعيّن الأسماء هنا، ونشير إلى القمم الشامخة في شعر تونس الحديث، فإنّ الشابّي – بلا جدال – أكبر عملاق بين شعرائها جميعا. وهو أيضا أول من حطّم القيود، وثار على أسلوب الحياة في القماقم والجحور، فرفض أن يعيش شعره فيها، ومن ثمّ لم يدخلها.

فكان ذلك بداية للثورة الجامحة التي ظلّ وحده جنديّها وقائدها حتى لحظته الأخيرة في الحياة.

فليس، إذن، خيالا ولا تشاؤما ما نجده في شعر الشابي من إحساس قويّ بالغربة، وكره وازدراء للمحيط، فإنّ العملاق لا يبدو، ولا يكون بين الأقزام إلا غريبا في نظر نفسه وفي نظر كلّ من يراه.

وعملاق آخر ثار على الأقزام، ورفض حياتهم وأسلوبهم، وعاش للثورة في كلّ شيء، في شعره، في أسلوبه، في حياته، في تفكيره، في كلّ ما امتلأت به أيامه القصيرة بيننا.

ولكنّ ثورة هذا العملاق لم تبلغ من الشمول والقوة ومن التأثير والتدمير ما بلغته ثورة الشابي، كما أنها امتازت بطابع السخرية والانحلال والهروب من الواقع، والتهالك على المتع الرخيصة العابرة، فانطفأت حمم ثورته في فقاقيع الكؤوس وبين أحضان الغانيات. ومع ذلك، فإنّ لهذا العملاق قيمة فنية خاصة لم يبلغ إليها أيّ شاعر آخر. ورغم اختلافه عن

الشابّي في الأسلوب والشاعرية، وفي الاتجاه والهدف، فإنّه يشترك معه في ناحية خطيرة هي الثورة على مألوف الحياة عند الأقزام، في البيئتين الأدبية والاجتماعية على السواء.

ولئن وصل عملاقنا هذا إلى قمّة الثورة في الإحساس، وفي الخروج على الحياة الرتيبة المتعفّنة، الخالية من التجربة والحركة، فإنّه لم يصل إلى تلك القمّة الشامخة في اللغة والفنّ التي حلّق الشابّي فوقها كالنسر الخالد الجبّار.

ولعلّ القارئ قد طال شوقه لمعرفة هذا العملاق، ولنسمّه (العملاق الصغير) بالقياس إلى الشابّي، ذلك لأنّ مجرد ذكر اسمه سيكون غريبا وكالصاعقة في نفوس بعض الناس الذين سوف يحركهم الإثم القديم إلى حمل معاولهم، وإعلان النفير للقيام بحملة تهديم جديدة، تهدف – كما هدفت من قبل – إلى طمس الحقائق وعرقلة الحياة في سيرها الصاعد نحو إنسانية عليا ومجتمع أسعد.

ومهما يكن من عنادهم وكفرهم بالحياة في حقائقها الأبدية وناموسها الخالد، فإنّنا لا نحسب لهم حسابا إلاّ بقدر ما يعترضون سير القافلة، ويبثّون في طريقها من عراقيل.

ولحسن حظّ جيلنا الحاضر أنّ طلائعه الواثبة تملك وسائل تطهير كثيرة، يكفي أصغرها شأنا لأن يطهّر الطريق من كل الحشرات والجراثيم الضارّة. وذلك بفضل الجبهة القويّة الحرّة التي خلقتها ثورة الشابّي خلقا، والتي جعلت من جيلنا الجديد طليعة رائدة تشقّ الطريق، طريق الشعب نحو النور والحياة والحرية.

أما عملاقنا الصغير فهو المرحوم محمد العريبي، ذلك الشاعر المتمرّد الذي أعلن العصيان حتى على القيم الحقيقية للتعبير والشعور. ولم يكن ليفعل ذلك لولا عناد الفئة الجامدة التي تحدث في الشباب الثائر الطموح، بعنادها وقسوتها، ردّ فعل خطير، كثيرا ما يكون ضارّا ومنحرفا أو قريبا من هذين.

وكم بهذا العناد وذلك الجمود ضاعت أجيال وعبقريات، وتبعثرت إمكانات وجهود، كان من الممكن أن تؤدّي إلى البلاد، وإلى الأدب والفكر أكبر الخدمات وأجداها، لو كان قد أُعطي لها حقّها في العمل والتجربة، ونصيبها من المسؤولية والحرية.

شباب ثائر

والشباب دائما، في نظر الشيوخ وأشباه الشيوخ من الصغار القاعدين : طائش، غير ناضج، جموح، محطّم.. إلى غير هذه الأوصاف، مما يستعين بها القابعون في بروجهم الفخّارية، ليبرّروا بها مواقفهم السلبية أمام الناس ولدى ضمائرهم. وما دروا أنّ الشباب في ثورته وجموحه، وفي طيشه وفي كلّ نزواته غير المحمودة منهم، الشباب في كلّ ذلك مدفوع إليها قهرا بسببهم هم، بسبب جمودهم ووقوفهم في الطريق.

وما أصدق والت ويتمان(١) حين قال :

«لا تلوموا الشباب إذا امتلأت نفسه بالمرارة والشكّ

---

(١) شاعر أمريكي ذو نزعة إنسانية تقدمية (1819–1892)

والغليان.. فالذنب ذنب الكبار الذين لم يحوّلوا المرارة إلى قناعة، والشكّ إلى إيمان، والغليان إلى قوة دافعة للإصلاح».

إنّه لمؤسف حقا أنّ هذه الفئة لا تعمل شيئا ولكن يؤذي نفسها أن يعمل الناس الآخرون، كما قال عن مثلها طه حسين. وكم ينسجم مع هذا السياق قول الشاعر الألماني غوته :« ألا أنّ أولى الناس بالخجل، لأولئك الذين صاموا عن العمل ولم يفطروا، وسمّوا العجز عقلا حين همّوا ولم يقدروا».

وقد يكون بعض الذين نعنيهم بهذا الحديث قادرا، لأنّهم مهما كانوا ويكونون فلن يخرجوا عن بشريتهم، وفي النفس الإنسانية دائما تكمن إمكانات كثيرة. والمسؤولية إنما تكون على أولئك الذين يرون النعمة كل النعمة في اتباع من سلف، ولا يرون في حاضر الإنسان شيئا جديدا يستحق الاهتمام، فإذا ما شهدوه فعلا، ولم يجدوا إلى نكرانه من سبيل قالوا عنه : «هذا بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار». وبمثل هذا التعطيل لقواهم العقلية ومداركهم الفكرية يتوهّمون أنّهم في نعمة، ما بعدها نعمة. هكذا يعيشون عاطلين ومعطّلين، حاسبين ما فيهم وفي المجتمع من نقائص وعيوب حسنات، بل فضائل ينبغي الدفاع عنها بكلّ وسيلة وتحت أيّ شعار. ومثل هذا الفريق الخادر المخدّر لا ينبغي أن يوصف إلا بأنّه هادم للحياة خائن للوطن، ذلك أنّ من يقف باسم الدين أو أيّ اسم آخر في طريق تحرّر شعبه، أو تقدّمه الحضاري، إنما هو مستحقّ لكلّ لعنة، وخليق بكلّ ازدراء.

وهذا ما يستحقّه دائما أولئك (المغفّلون النافعون) الذين يؤدّون إلى أعداء شعبهم ووطنهم أجدى الخدمات وأقواها بوقوفهم في وجه كل رائد أو داع للبناء والتقدّم الاجتماعيّ أو الفكريّ أو الأدبيّ :

ملئ الدهر بالخداع، فكم قد
ضلّل الناس من إمام وقسّ!
كلّما أسأل الحياة عن الحـ
ـقّ، تكفّ الحياة عن كل همس(1)

***

كلّما قام في البلاد خطيب
موقظ شعبه، يريد صلاحه
أخمدوا صوته الإلهيّ، بالعسـ
ـف، أماتوا صداحه ونواحه
ألبسوا روحه قميص اضطهاد
فاتك، شائك، يردّ جماحه
وتوخّوا طرائق العسف والإر
هاق توّا، وما توخّوا سماحه
هكذا المصلحون في كلّ صوب
رشقات الردى إليهم متاحه (2)

---

(1) من قصيدة للشابي عنوانها : الدموع
(2) من قصيدة للشابي عنوانها : تونس الجميلة

بداية المعركة

عندما دعا الشابّي إلى ضرورة إيجاد أدب جديد يتّصل بالحياة، ويعبّر عن مشاكل المجتمع ومطامحه، حمل الهدّامون فؤوسهم وجاءوا إليه مهرولين وهم يتصايحون : أين هو الكافر؟. اين هو الخيالي؟ أين هو الناعي علينا الركود والجمود؟. وعبثا حاول فقيدنا أن يفهمهم حقيقة الأدب وواجب الأديب في هذا العالم الحديث وحضارته الشامخة، وذهب سدى كلّ ما أعلنه فيهم من مفاهيم جديدة للأدب، وقيم حقيقية للشعر ورسالة تجديدية للشاعر :

«لقد أصبحنا نتطلب أدبا جديدا نضيرا يجيش بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور، نقرأه فنتمثّل فيه خفقات قلوبنا وخطرات أرواحنا وهجسات أمانينا وأحلامنا، وهذا ما لا نجده في الأدب العربيّ القديم، لقد أصبحنا نطلب أدبا قويّا عميقا يوافق مشاربنا، ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة، بما فيها من شوق وأمل، وهذا ما لا نجده في الأدب العربيّ ولا نظفر به، لأنّه لم يخلق لنا نحن أبناء هذه القرون، وإنما خلق لقلوب أخرستها سكينة الموت، أمّا نحن فما زلنا بعد من أبناء الحياة. ولهذا فلا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربيّ كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون، ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعدّه كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها ليس غير. أمّا أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس والعبادة والتقليد، فهذا لا نسمح به لأنفسنا،

لأنّ لكلّ عصر حياته التي يحياها، ولكلّ حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب.

«يجب علينا أن لا ننظر إلى الأدب القديم إلا تلك النظرة المعجبة لا غير، حتى يمكننا أن نتّخذ لنا أدبا قويا، فيه ما في الحياة الحاضرة من عمق في الفكر، وسعة في الخيال، ودقة في الشعور، أمّا أن نتّخذ الأدب العربيّ الذي عرفنا خلوّه من مثل هاته الأمور مثلنا الأعلى الذي ننسج على منواله، فذلك هو الخمول، وذلك هو الموت الزؤام.

«لقد أصبحنا نتطلّب حياة قوية مشرقة، ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلّب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة، أما من يعبد أمسه، وينسى غده، فهو من أبناء الموت والقبور الساخرة. لقد أصبحنا نتطلّب الحياة، ولكن لنعلم قبل ذلك أنّنا جياع عراة، وأنّ تلك الثروة الطائلة الضخمة التي أبقاها لنا العرب القدامى لا تشبع جوعنا. لعلّنا إن شعرنا بفقرنا وعزينا تحرّكت فينا عوامل العزّة الإنسانية، فطفقنا نعمل بعزم وقوّة، ما نستر به سواعدنا العارية، ونطعم به بطوننا الجائعة، مما نحوكه بأنفسنا، ونستخرجه بأيدينا من مصانع الحياة.

فلا خير في أمة عارية تكتم فقرها، ولا خير في شعب جائع يظهر الشبع، وشرّ من كلّ ذلك أمة تقتني أثوابها من مغاور الموت، ثم تخرج في نور النهار متبجّحة بما تلبس من أكفان الموتى وأكسية القبور.

«ذلك رأيي في الأدب العربي وفي موقفنا تجاهه، أقوله لأنّه

الحقّ وإن كنت أعلم أنّه سيغضب طائفة كبيرة ممّن يؤثرون الحياة في أكناف الدهور الغابرة، حيث السكينة التي لا تصمّ الآذان، والسبات الذي لا يستفزّ الحياة. ولكنّني في غنى عن سخط هذه الطائفة من الناس وعن رضاها، لأنها تقدّس كل ماض وتعبد كلّ قديم، لا لأنّ فيه حقّا ونورا، ولكن لأنّ رداء القدم يكسبه مهابة الماضي وجلال التاريخ، أنا في غنى عن مثل هذه الطائفة من الناس، وحسبي أنّني أعلنت حقيقة أرضيت بها نفسي، وأرضيت بها الحق وذويه.»(1)

والشعراء عند الشابّي هم :

«أولئك الذين يرتفعون بأرواحهم إلى آفاق فسيحة أرحب وأسمى من سماء البيئة المحدودة، متغزّلين بدنيا غريبة رائعة لم تخلقها الحياة إلاّ في أعماق قلوبهم الملأى ببهاء الكون ومثل الحياة العليا.

«وهم أولئك الموهوبون الذين يسبقون عصورهم فيغنّون أشهى أغاني الجمال، وأعذب أناشيد القلب البشريّ لأجيال لم تخلق بعد، وهم أولئك الذين لا يصوّرون عادات العصر المتغيّرة المتحوّلة، بل عادات الحياة الخالدة على الدهر، ولا يصفون أحاديث الوعّاظ والمتكلّمين والمتفلسفين، بل أحاديث نفس الإنسان التائهة في بيداء الزمان، ولا يعلنون أسرار القصور والمجالس، بل أسرار الأزل والأبد.»(2)

---

(1) –أبو القاسم الشابي : الخيال الشعري عند العرب. ص100 – 102 – 103 ط أولى.

(2) مجلة العالم الأدبي التونسية : السنة الرابعة عدد2 ، ص25.

والشاعر لن يؤدّي رسالته في نظر الشابّي، إلاّ إذا كان شعره :«من ذلك النوع الذي يوسّع أفق الحياة في نفسك ويجعلها تحسّ بتيّارات الوجود أكثر مما ألفت أن تدرك، وينسيك وجودك الإنسانيّ لحظة لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ويسبغ منه على نفسك.»(1)

وشتّان بين هذا الفهم للأدب ورسالته، وبين من يحصر الأدب وقيمه في مجازات لفظية واستعارات كلامية وصناعة لغوية لا تغني الروح والمجتمع شيئا، ولا تدفع الإنسان أو تنير له السبيل في تطلّعه الدائم نحو الكمال، وطموحه الدائب إلى المثل الأعلى.

والاستعمار أيضا

ولم تكن الرجعية في الأدب والحياة والدين هي وحدها التي تحارب طليعة الحرية والأدب الجديد، بل كان الاستعمار هو الآخر يحارب المصلحين ويخنق الأنفاس الحرّة ويحالف الرجعية، ويعتمد عليها في حماية المصالح المشتركة، وجعل حظوظ الشعب في يديه إلى الأبد. ولن يتحقّق له ذلك إلاّ بالقضاء على كلّ من ينير للشعب طريق الخلاص والحرية.

(1) (كتاب الشابّي – حياته وشعره) للمؤلف، قسم المختارات.

وقاد الشابّي معركة الحرية والتجديد في الأدب غير عابئ بخسائره الجسيمة وجراحه الدامية التي استنزفت حياته، وجعلت أيامه محدودة بيننا، فمضى في عمر الأزهار إلى عالم الخلود.

تاريخ أسود

والتاريخ الحديث لم ينس بعد كيف وقف أحلاف القديم أكثر من مرة موقفا بغيضا منكرا من كلّ جديد يطلع على الناس، إن في العلم أو في الأدب أو في غيرهما، غير أنّ عجلة الحياة تدور دائما إلى الأمام، وقانون التطوّر يكتسح معارضيه بقسوة لا ترحم، وهكذا ينتصر الجديد ويسود.

ومن نافلة القول أن نعلن أنّ سدنة الرجعية والاستعمار إنّما يحاربون التقدّم ودعاته لا إيمانا بما عندهم وإنّما محافظة على مصالحهم التي لا بدّ أن يقضي عليها ويزيلها وعي الجماهير الاجتماعي، وتقدّم المجتمع الشامل في الفكر والأدب وفي السياسة والاقتصاد.
لهذا كان أقوى سلاح استعملوه ويستعملونه بخبث وسوء نية هو الدين، أو على الأصحّ مفاهيمهم الخاطئة عنه، وتأويلاتهم المنحرفة لنصوصه وأصوله.

وسنرى بعد قليل أنّ هذا الأسلوب الرخيص كان دائما، وحتى اليوم، كلّ ما يملكه أنصار الرجعية والجمود من

وسائل الدفاع عن باطلهم، غير أنّ الحقائق سرعان ما تبدو مشرقة وهّاجة كالشمس في رابعة النهار، وذلك حينما تستيقظ ضمائر الجماهير من غفوتها، وتثب العقول الحرّة من قواعدها، فيسلّط الجميع نيران مدافعهم الثقيلة على أعداء النور والحرية، فإذا بيوت السخف والشعوذة التي يعتصم بها دعاة الرجعية المتعفّنة أنقاضا على رؤوسهم، ونثارة في كلّ مكان.

وما كان موقف المحافظين، ولن يكون دائما، إلاّ موقف الجمود والخوف : الجمود على ما ورثوه من أكفان الموتى وتقاليد الماضي السحيق، والخوف من حرارة الحياة الجديدة المتدفّقة كالبركان.

الإسلام والحرية

ولحسن حظّ العرب أن جاء دينهم الحنيف يحارب الجمود بكلّ ألوانه، والخوف من شتّى مظاهره، ففي الإيمان بالوحدانية تحرّر من وثنيّات الرّوح والنفس وكلّ تقاليد المجتمع الفاسدة، ونزوع إلى الانطلاق العقليّ والاجتماعيّ الكامل، وحرب على الخوف والقلق والحيرة وجميع أمراض النفس الإنسانية المزمنة التي كوّنتها الجاهلية الأولى ورواسب القرون الماضية.

لقد حارب الجاهليون محمدا ورسالته الخالدة دفاعا عن قديمهم الفاسد، وخوفا من دعوة الإسلام التقدّمية الجريئة أن تكتسح خرافاتهم وتقاليدهم الرجعية البالية.

ورغم أنّ الإسلام يدعو إلى التطوّر، ويحارب الجمود، وينادي باستعمال العقل في كلّ الأمور، فإنّ الجمود وعدم استخدام العقل بحرية نزيهة رشيدة هي الأسلحة الحقيقية التي تمسّك بها دعاة القديم وأحلافه، ناسبينها بكلّ دناءة وخبث إلى الإسلام نفسه.

ولعلّ أكبر خطوة هدّامة قاموا بها هي إغلاقهم باب الاجتهاد إلى الأبد! ثم إعلانهم تلك الحكمة المضحكة: «ليس في الإمكان أبدع ممّا كان»!، ولقد أثبت العلم وتقدّم الحضارة أنّ في الإمكان البشريّ إبداعا أكثر من جميع ما كان، فالطائرة والصاروخ، والراديو والتلفزيون والكهرباء، واكتشاف الجراثيم وآلاف المبدعات الأخرى هي أكبر حجارة رجمت رؤوسهم المثقلة بذنوب الأجيال التي حالوا بينها وبين الحياة والتقدّم.

وجاء القرن التاسع عشر فإذا جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده يفتحان باب الاجتهاد من جديد وإلى الأبد أيضا، وإذا محمد عبده يقول :

ولست أبالي أن يقال محمد
أبلّ أم اكتظّت عليه المآتم
ولكنّ ديننا قد أردت صلاحه
مخافة أن تقضي عليه العمائم

وبديهيّ أن يحارب أقطاب الرجعية محمد عبده

وجمال الدين الأفغاني، متّخذين من الدين والسياسة سلاحا حادّا ضدّهما، ولكنّ النصر كان في النهاية حليف المصلحين العظيمين اللذين أعادا إلى الإسلام قيمته الحقيقية، وأيقظا ضمائر الناس وأفكارهم إلى الحياة من جديد.

وتنادى بعدهما دعاة الحياة والحرية الفكرية في كلّ قطر عربيّ: فكان أحمد لطفي السيّد، وقاسم أمين، وطه حسين في مصر، ومعروف الرصافي وجميل الزهاوي في العراق، والطّاهر الحداد وأبو القاسم الشابيّ في تونس، وغير هؤلاء كثيرون في كلّ قطر عربيّ.

وإنّه ليهمّنا هنا أن نقف مع الشابيّ وحده، لنفهم بإيجاز دعوته وأفكاره الجديدة التي كانت غريبة على نفوس شعراء الخضراء المعاصرين له، وعلى البيئة نفسها. أمّا البيئة فليس لنا أن نطالبهم بما لم تتهيأ له، ويرتفع إليه مستواها، ولكنّ الشعراء ما خطبهم؟

الشعر والشاعر

ومرّة أخرى نحن مضطرّون إلى العودة إلى مفهوم الشعر، لأنّ فيه يكمن سرّ المأساة: مأساة الشابيّ ومأساة الشعر في تونسنا العزيزة.

لقد كان شعراء الخضراء، أو من يسمّون أنفسهم بالشعراء

في ذلك الحين، كانوا يفهمون الشعر بتلك المفاهيم القديمة التي عرضتها مفصّلة قبل قليل. وكانوا لا يرون في الشعر إلاّ أنّه تسلية وتزجية لأوقات الفراغ، وضرب من اللّهو والترف الفكريّ (١) تماما مثل لعبة الشطرنج، أو أيّ متعة من المتع الرخيصة العابرة.

وكان بعضهم يرى الشعر شطارة في التلاعب بالألفاظ، وابتكار الألغاز والأحاجي التي لا تشغل إلا الأذهان الفارغة والعقول البليدة. ولم تكن أغراض الشعر – نتيجة لتلك المفاهيم – عند هؤلاء لتزيد عن الغزليات الكاذبة والمدائح الملفقة، وغير هذين من ضروب الكلام التافه ، ممّا يتحدّثون به عن صديق مسافر وغانية غضوب، أو رثاء فقيد لم يره (الناظم) مرة واحدة في عمره، ولم تجمعه به عاطفة من تلك العواطف الإنسانية النبيلة، وإنّما هو يرثيه بقصيدة مطوّلة، ليقال مَنْ ذا قالها وليس غيرا.

أمّا ما يقدّم بخورا في كلّ مناسبة إلى ذوي الجاه والسلطان وأصحاب المال والنفوذ، فهو أكثر من أن يحصى، وأقلّ من أن يعدّ شعرا له قيمة وكرامة. وليس لي أن أشغل وقت القارئ وذهنه بمثل هذا الكلام الذي يسمّونه شعرا، وأسمّيه لغوا وإثما من القول.
وإنّما يسرّني أن أسجّل حقيقة ثانية في تاريخ الشعر بتونس، وهي أنّ عددا من الشعراء قد شقّوا الطريق في عصر الشابّي أو قبله بقليل، نحو أدب جديد وشعر حرّ يتّصل بالحياة، ويحسّ بآلام المجتمع، ويعبّر عن مطامحه

(١) راجع : الخيال الشعري عند العرب، للشابي – ص139 وما بعدها. ط أولى.

وكفاحه، ويناضل معه ضدّ الطغيان والعدوان، وكلّ ألوان الظلم والقهر.

وإذا كانت هذه الفئة القليلة من الشعراء لم توهب من الشاعرية ما يسمو بها إلى قمّة الإبداع الفنيّ التي حلّق الشابّي فوقها كالنسر الخالد الجبّار، فإنّه ليكفينا من أفرادها صدقهم في المحاولة وارتيادهم الطريق الوعرة، وصمودهم مع الشعب في آلامه ومحنه، وبقاؤهم معه في كلّ الظروف والحالات. ومهما كان حكمنا على شعرهم من ناحيتيه التصويرية والتعبيرية، فإننا لا نستطيع أن ننكر فضلهم العميم في تفاعلهم مع الحياة، ووقوفهم إلى جانب الحقّ في أحرج الأزمات، وأحلك الأيام.

وقد لا نبقي في شعرهم شيئا كثيرا إذا نحن جرّدناهم من تلك الملابسات النبيلة والدوافع الشريفة. ومع ذلك فإنّهم كانوا طليعة رائدة ووثبة جديدة ثائرة، دفعت شعرنا إلى الأمام خطوات حسنة، وجعلت له كرامة ولأصحابه تاريخا.

ولو لم يكن لهاته الطليعة الرائدة إلاّ أنّها ذكرت (الشعب) في شعرها، ولأول مرة، ودافعت عن حقوقه في حدود إحساسها بها لكان حقّا علينا أن نمجّدها، ونقدّم العرفان إليها، ولكنّها في الواقع فعلت أكثر من ذلك. ومن شعراء هذه الطليعة الرائدة الشاذلي خزنه دار، والهادي المدني، وسعيد أبو بكر، والطاهر الحداد، وبعض الشعراء الآخرين الذين نجد في شعرهم اهتماما ملحوظا بكفاح الشعب وآلامه ومحنه، وبآماله وطموحه.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

قمّة الشّابي

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

ولكن أيّ واحد من هؤلاء جميعا لم يبلغ ما بلغه الشابّي من ارتفاع في الإحساس، وسموّ في المعاني وإبداع في التعبير، وتقديس لرسالة الشاعر، واعتبار الشعر فنّا من فنون الحياة، يعبّر عنها، ويتّصل بها :

يا شعر! أنت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب
يا شعر! أنت صدى نحيب القلب والصبّ الغريب
يا شعر! أنت مدامع علقت بأهداب الحياة
يا شعر! أنت دم تفجّر من كلوم الكائنات

***

... أنت يا شعر فلذة من فؤادي
تتغنّى، وقطعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنين
أبديّ إلى صميم الوجود
... أنت يا شعر صفحة من حياتي
أنت يا شعر قصّة من وجودي
فيك ما في الوجود، حبّ بنو
الدّنيا قصيدي، أم لم يحبّوا قصيدي

أمّا قلب الشاعر.. فدنيا كاملة، دنيا ساحرة عجيبة تزخر بالحياة والجمال، وتنتظم الكون بأسره :

يا قلب كم فيك من دنيا محجّبة
كأنّها حين يبدو فجرها إرَمُ
يا قلب إنّك كون مدهش عجب
إن يُسأل الناسُ عن آفاقه يجموا
كأنّك الأبد المجهول قد عجزت
عنك النهى، واكفهرّت حولك الظُّلَم
... تبلو الحياة فتبليها وتخلعها
وتستجدّ حياة ما لها قدم
وأنت أنت : شباب خالد نضر
مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم

هكذا يحدّثنا الشابّي عن الشعر وعن الشاعر، وعن قلبه المتوهّج، الذي تبدو عليه الدنيا كأنّها إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وفي قلب الشاعر تعيش الكائنات جميعها وتضطرب الحياة كلّها، فيرى الشاعر قصيدة تتحرّك والكون فنا يتجدّد، فلا يلبث أن يحسّ بالحياة تمشي على قلبه والكون يزحف في فؤاده :

تمشي على قلبي الحياة ويزحف الكون الكبير

بمثل هذا الحديث الرائع الجميل حدّثنا الشابيّ عن الشعر وعن الشاعر وقلبه الخالد النضر، فلنستمع إليه ينثر علينا هذه المعاني في مقال كتبه عن الشعر :

«الشعر يا صديقي : تصوير وتعبير، تصوير لهذه الحياة التي تمرّ حواليك مغنية ضاحكة لاهية، أو مقطّبة واجمة باكية، أو وادعة حالمة راضية، أو مجدّفة ثائرة ساخطة. وتعبير عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فنيّ جميل، ملؤه القوّة والحياة. يقرأه الناس، فيعلمون أنّه قطعة إنسانية من لحم ودم وقلب وشعور، لأنّهم يحسّون أنّه قطعة من روح الشاعر وعبق من عواطفه، أو فلذة حيّة من فؤاد الحياة».

هذا هو الشعر عند الشابي، وهذا هو تحديده له ومفهومه عنه. فهل كان شعر الشابّي كلّه كذلك؟ وهل كان شعر معاصريه من شعراء تونس يصحّ فيه هذا التحديد؟

أما عن السؤال الأول فالجواب نعم. أما عن الثاني

فالجواب لا. فقد عاش شعراء تونس منفصلين عن الحياة، بعيدين عن آلام شعبهم. أو بالأحرى لا يتفاعلون معها بمثل هذا التفاعل المستنير، ولا يعبّرون عنها- إن عبّروا- بمثل هاته الحرارة والصدق، وبمثل هذا السموّ والارتفاع اللذين نجدهما عند الشابّي.

أصوات لا تُسمع

وليس ما أقوله تجنّيا أو ادّعاء عليهم بغير حقّ، فهذا واحد منهم تحرّك ضميره فوجه التهمة ذاتها منذ أكثر من خمسين عاما، وتساءل عن رسالة شعرائنا، ولماذا لم يبلغوا صوت تونس إلى خارج حدودها؟ ثم يجيب عن سرّ ذلك كله، ولنتركه يتحدّث عن كلّ ذلك في هذه العبارات القليلة :

«هل حمل شعراؤنا صوتنا إلى الخارج وأبلغوا كلمتنا إلى الشعوب العربية، كما حمل إلينا حافظ وشوقيّ صوت مصر، وأسمعنا الزهاوي والرصافي صوت العراق، وخليل مردم صوت سورية، والمهجر صوت ايليا أبي ماضي؟

«شعراؤنا كثيرون لا جرم، ولكن معظم شعرهم مشكوك في قيمته مستراب في نوعه، متنافس في نفعه، وليس بعسير على النقد أن يطلع الناس على زيفه، ويبرهن عن خلوّه من الإحساس والشعور، وإقفاره من العاطفة والخيال، وليس يعيبه أن يتركه بعد عرضه على المحك أكواما من الألفاظ والأوزان، وهشيما من التقاطيع والتفعيلات»(١).

(١) الأستاذ محمد الحليوي في مقال له بمجلة (العالم الأدبي) سنة 4 ع22 ص4-12-1932/8/15.

وإذا ثبت أنّ الكثرة الكاثرة من شعراء الخضراء لم تقف في صفّ الرصافي أو ايليا أبي ماضي أو حافظ إبراهيم، ولم تبلغ صوت تونس إلى الخارج، حتى لم يعرف أحد أنّ في تونس شعراء، فما السبب؟ هل هو الشعب نفسه، أم حياته ذاتها، أم ظروفه وطبيعته أم جوّ بلاده وأرضها؟ أم ثمّة سبب آخر؟

دفاع عن الشعب

إنّ الشابّي نفسه يعطينا جوابا قاطعا فيقول :

«... إنّ في قلب هذا الشعب التونسيّ ثروة روحية وفنّا قويّا، ولكنّها ثروة مهملة وفنّ غير مصقول، وإنّ في طبيعة هاته البلاد سحرا يلهم الصخر أسمى المعاني وأرفع الأفكار، لو كانت للصخر مشاعر حيّة واعية. وإنّ الداء كلّ الداء في الألسنة المعبّرة، لا في روح الشعب، ولا في طبيعة البلاد»(١)

وإذن، فليس سرّ المأساة، مأساة الشعر، هو روح الشعب أو طبيعة البلاد، وإنّما هو انزواء الشعراء عن حياة الشعب وعن طبيعة البلاد، ترفّعا عنها، أو عجزا عن مسايرة الآمال الجسام التي يخفق بها قلب الشعب.

وهذا الشابي يشرح لنا هذه الحقيقة المؤلمة بأسلوبه الشعريّ العذب، وبعرضه الدقيق البديع فيقول :

«... إنّ في هؤلاء الشعراء من يعرف كيف يجبل الطين،

---

(١) أبو القاسم الشابي : الشعر والشاعر عندنا، مقال بمجلة (العالم الأدبي) س3 ع28 ص4 في 1932/10/24

ولكن ليس فيهم من يعرف كيف ينفخ فيه روح الحياة.»

«... وكيف تريد من شعرائنا التونسيّين أن يكونوا غير ذلك، وهم إنّما يعيشون على هامش الحياة، ولا يخوضون أحشاءها، ويستوحون صفحات الكتب ولا يستوحون هذا الوجود، ويصغون إلى هذر الشعب ولا يصغون إلى أصوات قلبه الكثيرة، ويتغنّون برغبات المجتمع الزائلة، ولا يتغنّون بمطامح الإنسانية الخالدة.

«... الحقيقة أنّهم ما زالوا بعيدين عن الحياة في فنّهم، حياة رفيعة سامية، والاندماج فيه بكلّ ما لهم من روح وحسّ وتفكير وخيال، حتى ينطبع شعر كلّ واحد منهم بطابعه الذي لا يشاركه فيه غيره. وما برحوا ينظرون إليه كنافلة من نوافل النفس لا ضرورة من ضروراتها، ولهو ساذج يتسلّى به المرء في سآمة الوحدة وملل الفراغ، لا جدّ صارم يتّصل بأعمق أعماق الحياة. ومن ثمّ كانوا لا يمنحونه ما يجب من التقدير والاحترام، ولا يتحرّجون أن يسفّوا به إلى صغائر الأشياء وسخافاتها.

«وهكذا يصرفون أيّامهم ولياليهم في كهوف ضيّقة وأودية عميقة مظلمة، يسمّونها مساكن آبائهم الأوّلين. وإن ارتفعوا فإنّما ليخاطبوا الشعب بذلك (الشعر الاجتماعيّ) على طريقة وعّاظ المنابر، أو أساليب كتّاب الصّحف.

ويا ليتهم يعلمون أنّ للشعب روحا كأرواح الأطفال وأقداما كأقدام الجبابرة، وأنّ أنشودة تغنّي فتنة

الدنيا وجمال الوجود لأجدى على روحه، وأعود عليه من ذلك الوعظ الفاتر والتعاليم الجامدة، وكلّ تلك الأشعار المقفرة الخالية من روح الفنّ وحرارة الحياة، التي – أي الأشعار– ملأوا بها سمعه وأثقلوا بها قلبه المسكين.

«... أما ذلك الفنّان الذي يكون في روحه شيء من طبع النبوّة التي تبصر ما لا يبصره الناس، وتشعر بأسمى ممّا يشعرون، وعنصر من معنى الألوهيّة التي تخلق من المادة الصمّاء حياة ساحرة وفلكا دائرا، أمّا ذلك الخلاّق الذي يبعث في آثاره فلذة من روحه، ونسمة من حياته، فإذا هي حيّة ناطقة، تعبّر في قوّة وإبداع عمّا في هذا الوجود من سحر وفنّ وجمال، وتتغنّى بما يزخر في أعشار القلب البشريّ من عطف وبغض، ويأس وحنين، ولذّة وألم، وغايات ومُثُل... أما ذلك الجبّار الذي يرتفع بقلبه فوق البشر، ليتحدّث بلغة السماء، عن نشوة الروح وحيرة الفكر التائه بين نواميس العالم وبهاء الوجود، فإنني فتّشت عنه فما وجدته، ولو وجد لظلّ غريبا مغمورا مجهولا من الناس.»(١)

لأوّل مرة سمعنا دفاعا حارّا عن الشعب، واتهاما خطيرا موجّها إلى شعراء الخضراء الذين قبعوا كالحمام في بروجهم الفخّارية، وقد آن الأوان لكي يخرجوا منها إلى الحياة، إلى الشعب، إلى النضال، من أجل حريته المسلوبة، وكرامته المهانة وإلاّ فلتكسر على رؤوسهم بلا رحمة وبلا حنان، وليذهبوا بعدها إلى الجحيم.

---

(١)المصدر السابق ص2. 3.

إخلاص للمبادئ

لقد رسم الشابّي لنفسه شعرا ولشعره أهدافا نبيلة سامية: هي أن يجعل الشّعر صوتا قويّا ونبيلا من أصوات الشعب المكافحة، وأن يكون شعره بنّاء للمعالي ورائدا للحقّ والخير والجمال.

فكان شعره وحيا مقدّسا من ضميره اليقظ النقيّ. فلا مدح ولا رثاء، لا شيء من هذه الخصوصيّات التافهة التي يتسابق فيها غيره من الشعراء في كل المناسبات، حقيرها وجليلها على السواء. فلنستمع إلى الشابّي وهو يحدّد هذه الأهداف ويستعرضها بقوله :

لا أنظم الشعر أرجو ... به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء ... تهدى لربّ السّرير
حسبي إذا قلت شعرا ... أن يرتضيه ضميري

***

ما الشعر إلاّ فضاء ... يرفّ فيه مقالي
فيما يسرّ بلادي ... وما يسرّ المعالي
وما يثير شعوري ... من خافقات خيالي

***

لا أقرض الشّعر أبغي ... به اقتناص نوالي
الشعر إن لم يكن في ... جماله ذا جلال
فإنّما هو طيف ... يسعى بوادي الضّلال
يقضي الحياة طريدا ... في ذلّة واعتزال

ويسرّني أن أعلن هنا : أنّ هذه المبادئ السامية والاتجاهات السديدة التي تضمّنتها قصيدته هذه (شعري) قد كانت وهو دون العشرين من عمره القصير(١).

ويسرّني أن أعلن أكثر من ذلك : إنّ الفقيد الشابّي قد حافظ على مبادئه هذه، بل وتطرّف فيها، فلم يرث حتى والده، وقد كان عنده أعزّ مخلوق في الدنيا، لم يرثه إلاّ بأبيات ليست من الرثاء في شيء، وإنما هي حديث وجدانيّ، مجنّح عن نفس الشاعر وعبوديته للحياة، وحبّه إليها في شوق العابد وحنان الحبيب :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي
ومشاعري عمياء بالأحـــزان
أنّي سأظمأ للحياة، وأحتسي..
من كأسها المتوهّج النّشـــوان
وأعود للدنيا بقلب خافـــق
للحبّ، والأفراح، والألحـــان
ولكلّ ما في الكون من صور المنى
وغرائب الأهواء والأشجـــان
حتى تحرّكت السنون وأقبلـــت
فتن الحياة بسحرها الفتّـان
فإذا أنا طفل الحياة المنتشـي
شوقا إلى الأضواء والألـــوان
وإذا التّشاؤم بالحياة ورفضهـا
ضرب من البهتان والهذيـــان
إنّ ابن آدم في قرارة نفســـه
عبد الحياة الصادق الإيمـان(2)

---

(١) تاريخها في الديوان هو 13-6-1925

(2) هذه الأبيات هي قصيدته الإيمان بالحياة، وهناك قصيدة بعنوان (يا موت) طافحة بالحزن واليأس والعذاب.

أجل! لقد كان الشابّي مؤمنا بالحياة، ومؤمنا أيضا بحقّ شعبه فيها. لذلك وجدناه في الطليعة المكافحة عن حقوق شعبه، والمدافعين عن آماله والمعبرين عن آلامه وطموحه وكلّ ما يزخر به قلب الملايين من أبناء الشعب .

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

وطنية عميقة

إنّ إحساس الشابّي بآمال شعبه وبآلامه، وتعبيره عنهما، ليس من ذلك النوع السطحيّ الذي كانت تتّجه قرائح الشعراء الآخرين المعاصرين له، والساكنين معه في نفس البلاد والبيئة الاجتماعية والطبيعية التي كانت توحي له الإلهام والإبداع، وتدفع شعره إلى السموّ والارتفاع، على حين يقف أولئك الشعراء، رغم ألقابهم الكبيرة، فاغري الأفواه جامدي الحسّ والعقل والشعور، فتمرّ بهم الأحداث وكأنّها لا تمرّ، ويشهدون حياة الشعب الراكدة، بما فيها من بؤس وجمود. فيقتنعون بأنّها قضاء وقدر، حكم بهما الله، وإن هم عبّروا يوما عن حادثة أو مشهد، مما يعانيه الشعب كان تعبيرهم سطحيّا وباردا. والغريب أنّنا نجد من يعكس الحقائق، ويزيّف التاريخ، فيحكم على قصائد الشابّي الوطنيّة بأنّها ثانويّة، بالقياس إلى قصائده الأخرى أو أنّها لا تتمثّل فيها: «الروح الوطنيّة المتحمّسة، والقوميّة التونسيّة»(١).

وعلى الرّغم ممّا في هذه الآراء من أخطاء وسوء فهم، فإنّني لا أرى مناصا من عرضها والردّ عليها. قال أحدهم:

«... لقد أخذت الوطنيّة نصيبها في أدبه، وإن لم تكن قصائد هاته الناحية رفيعة حيّة تتمثّل فيها الروح الوطنيّة المتحمّسة والقوميّة التونسيّة بأجلى صورة وأسمى عبارة»(2).

---

(١) من الخطإ أن يطلق على النزعة الوطنية في تونس اسم (القومية التونسية) إذ إن تونس ليست أمة بذاتها، بل هي جزء من الأمة العربية. فقوميتها هي القومية العربية.

(2) – مجلة الأفكار التونسية، سنة أولى، عدد3.، ص29. يناير 1937.

وقال كاتب آخر:

«.. أحسن شعره ما قاله في الفلسفة والغزل ووصف الطبيعة ففيها نال الإبداع. ومتوسّط شعره أنشده في المواضيع الثانويّة في التشكي من الناس، والكلام عن الحق والأمل والقنوط، لاختياره الأسلوب القويّ واللفظ الغريب»(1).

إنّ هذه النظرة الضيّقة، بل الفارغة من الذوق والتمحيص والفهم الصحيح، لتدلّ دلالة واضحة على مدى التقصير والإجحاف اللذين كانا مقياس تقدير الشابّي وإكباره. ومثل هذه الآراء والفهم المعكوس لشعر الشابّي يعطينا سببا جديدا من تلك الأسباب الكثيرة التي جعلت الشابّي يحسّ بالغربة الشديدة في حياته، بين مواطنيه، فيقضي سنواته الأخيرة وحيدا بينهم.

ولقد سجّل لنا الشابّي هذه الغربة التي آلمته، وعصرت فؤاده عصرا في عدد ليس بالقليل من قصائده الحسان، يمكننا أن نذكر منها على سبيل المثال القصائد التالية: (أيّها اللّيل) و(الملل الأليم) و(قال قلبي للإله) و(أغاني التائه) و(الأشواق التائهة) و(الناس) و(أيتها الحالمة بين العواصف). ففي (الأشواق التائهة) يقول:

يا صميم الحياة كم أنا في الدنيا غريب أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي

---

1 – المصدر السابق س1 ع2 ص34، ديسمبر 1936.

وفي قصيدة (الناس) يقول :

ما قدّس المثل الأعلى وجسّمه ... في أعين الناس إلا أنّه حلم
ولو مشى فيهم حيّا لحطّمه ... قوم، وقالوا بخبث : إنّه صنم
لا يعبد الناس إلاّ كلّ منعدم ... ممنّع، ولمن حاياهم العدم
حتى العباقرة الأفذاذ حيّهم ... يلقى الشقاء وتلقى مجدها الرّمم
الناس لا ينصفون الحيّ بينهم ... حتى إذا توارى عنهم ندموا
الويل للناس من أهوائهم أبدا ... يمشي الزمان وريح الشرّ تحتدم

ولعلّ أشدّ من ذلك كلّه وضوحا وتعبيرا عما كان يعانيه الشابّي من معاصريه الأدباء في هذه الناحية بالذات، ما سجّله لنا في إحدى يومياته تسجيلا ينضح بالمرارة والخيبة واليأس. فقد كتب في يومياته بتاريخ يوم الثلاثاء 1930/1/7 :

«.. أشعر الآن أنّني في هذا الوجود، وأنّني ما أزداد يوما في هذا العالم، إلاّ وأزداد غربة بين أبناء الحياة، وشعورا بمعاني هاته الغربة الأليمة، غربة من يطوف مجاهل الأرض، ويجوب أقاصي المجهول، ثم يأتي ليحدّث قومه عن رحلاته البعيدة، فلا يجد واحدا منهم يفهم من لغة نفسه شيئا.

«غربة الشاعر الذي يستيقظ قلبه في أسحار الحياة، حينما تضطجع قلوب البشر على أسرّة النوم الناعمة، فإذا جاء الصباح وحدّث عن مخاوف الليل وأهوال الظلام، وحدّثهم في أناشيده عن خلجات النجوم، ورفرفة الأحلام الراقصة بين التلال، لم يجد من يفهم لغة قلبه، ولا من يفقه أغاني روحه.

«الآن أدركت أنّي غريب بين أبناء بلادي. وليت شعري هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه أحلامي قلوب البشر،

فترتّل أغانيّ أرواح الشباب المستيقظة، وتدرك حنين قلبي وأشواقه أدمغة مفكّرة، سيخلقها المستقبل البعيد؟ أمّا الآن فقد يئست، إنّني طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من لغة نفسه الجميلة، ولا يفقهون كلمة واحدة من صور الحياة الكثيرة التي تتدفّق بها موسيقى الوجود في أناشيده. الآن أيقنت أنني بلبل سماويّ قذفت به يد الألوهيّة في جحيم الحياة، فهو يبكي وينتحب بين أنصاب جامدة، لا تدرك أشواق أنّات قلبه الغريب، وتلك مأساة قلبي الدامية.

«... اجتمعتُ صباح هذا اليوم بأديبين أعرفهما كثيرا، ولا أريد أن أسمّيهما، أحدهما ملحد ومتجاهر بإلحاده، وثانيهما ملحد يكتم إلحاده إلاّ عن الخاصة من خلصائه الذين لا يخشى منهم مغبّة.

وما إن استقرّ بي المجلس حتى قال ثانيهما يخاطبني : «إنّ أدبك يا صديقي فنّ غريب، لا أظنّه يعيش في تونس. فأنت في شعرك، من الشعراء الذين يدينون بالمذهب «سانبوليزم. وإنني لعلى يقين من أنّ أدبك لا يفهمه في تونس إلا أفراد قلائل، لا يتجاوزون الأربعة أو الخمسة على الأكثر».

فعارضه الأديب الأول قائلا :«أراك غلوت كثيرا في حكمك، وجاوزت حدّ الإنصاف، ومن أدراك أنّ صديقنا لا يفهمه إلاّ مثل هذا العدد اليسير! ولأبدأ بنفسي، فإنني أفهم شعر صديقنا حقّ الفهم، وأدرك مراميه البعيدة، وأشعر حين أقرؤه بخيالات تجول في نفسي، وبعواطف تتحرّك في

قلبي، وبآفاق تنفسح أمامي وتمتدّ، ولكنّي رغم ذلك ورغم إعجابي بأدب صديقنا وإكباره، فإنّني أودّ لو لم يقصر مراميه على هذا اللون الوحيد من الأدب، وإنّما خاض معترك الحياة، وعاد لنا بمثل منه وصور وميّزات».

فأجابه الآخر قائلا : «إنّي لا أزال مصرّا على رأيي وأجزم به، فإنّ أمير الشعراء (1) مثلا لا يفهم من أبي القاسم شيئا، أقول لك هذا وأنا على يقين ممّا أقول. إنّ هذا الفنّ الأدبيّ الذي يتّخذ من الطبيعة رموزا لمعاني النفوس جميل جدّا، ولكنّه سام جدّا وغامض في سموّه، بحيث أنّه لا تفهمه إلاّ نفوس قليلة نادرة، حتى إنّني لا أفهم من فنّ أبي القاسم ومراميه إلاّ قليلا، حين تكون ليس لها من الغموض والرمز حظّ كبير. وقصاراي فيما عدا ذلك أنّني أحسّ بقوّة غريبة تستحوذ عليّ حين أتلوه، لا أستطيع لها فهما فأعجب به، وأقول : «لابدّ أنّ وراء هذا الرّنين حياة، ولا بدّ أنّ خلف هاته الغيوم آفاقا فسيحة».

«ولمّا انتهى صاحبي من كلمته، أحسست باليأس والقنوط يستحوذان عليّ، وقلت في نفسي كما قال يوليوس قيصر، حين لعبت به السيوف : حتى أنت يا بروتوس».

---

(1) هو المرحوم محمد الشاذلي خزنه دار (ت1954 الذي بايعه على إمارة الشعر عدد من شعراء تونس في مطلع العقد الرابع من هذا القرن) (المقصود القرن العشرين الماضي – الناشر–).

أجل! لقد كنت أحسب أنّه خير من فهمني، وأدرك أشواق قلبي وأفراحه، وأصغى لألحان روحي وأغانيها في ظلمة القفر البعيد، فإذا هو شرّ من جهل لغة نفسي، ولم يفهم منها إلاّ الساذج البسيط. وظللت صامتا لا أتكلّم، وأنا أقول في نفسي : لست والله غير طائر غريب يترنّم بين قوم لا يفهمون أغاني الطيور. ولكن هل يحفل الطّائر بالوجود جين يترنّم؟ وهل يسأل الناس : أيّكم يفهم أغاني الطيور؟! كلاّ يا قلبي كلاّ! سر في سبيلك يا قلبي، ولا تحفل بصفير الأبالسة، فإنّ وراءك أرواحا تتّبع خطاك.»(1).

هذا عن الأدباء المعاصرين له، أمّا عن الناس الآخرين، فلم يكن الحال معهم – طبعا – بأحسن من حال الأوّلين. فقد كان الشابّي يحسّ بالفراغ والكآبة والموت، حين تضمّه مجالسهم، ويكاد يتحوّل – كما يقول هو– إلى قبضة من رماد :

«... وكنت إذا جلست إلى الناس، واستمعت أحاديثهم أشعر بالخمول يدبّ إلى مشاعري، ويستحوذ على نفسي، حتى كأنّما انقلبت قبضة من رماد خابية في ليالي الشتاء، وأحسست بالحاجة إلى ما يثير عواطفي، ويحرّك وجداني، ويؤجّج في داخلي نيران الحياة (2).

---

(1) مجلة مكارم الأخلاق التونسية، السنة الأولى، عدد11، ص441-444.

(2) مجلة العالم الأدبي : س3 ع8 ص2.

ولحسن الحظّ أنّ فريقا من معاصريه كان يفهمه على حقيقته الكاملة. بل وأعلن هذا الفهم الصحيح في مناسبات شتّى.

وهذا الأستاذ محمد بدرة أحد هؤلاء القلّة الأخيار يحدّثنا عنه حديثا رائعا جميلا. وهو كاف وحده ليحكم بالإعدام على تلك الآراء المنحرفة التي قيلت حول الشابّي وشعره الوطنيّ :

«... إنّ أبا القاسم قد حافظ على تراثنا اللغويّ أشدّ المحافظة، وسبكه في قوالب جديدة من عقله الجديد، وخلع عليه ظلالا من أشعّة روحه التي كانت تحيا بيننا. على أنّه، بين مجدّدي الأدب في هذا العصر، يعتبر المثل الأعلى، فلم يتكلّف نظم قصيدة في الإلهة (أزيس) أو بنظم أخرى في البكاء على (الأكروبول) المتصدّع، ولكنّه كان عربيّ الدم والملامح واللسان، يشعر بأنّه قطعة من قومه، لا يعني غيرهم في كلّ ما يقول. وها هو ديوانه الذي خلّفه بين أيدينا، قد صوّرت فيه تونس بآمالها وآلامها، كأنّها ماثلة أمام مرآة صافية الأديم.

ومزية أخرى لأبي القاسم تحترق القلوب عليها لوعة، ذلك أنّه خالف المجدّدين الذين يطلعون على شعوبهم ساخطين من قومهم وأوساطهم، فأقسى كلمة نراها في ديوانه هي قوله : «أنت روح غبيّة تكره النور».

«فهذه الكلمة إذا قيست بما قاله الشعراء الناقمون لأقوامهم لا تزيد في الغلظة عمّا يقوله الوالد الرحيم لابنه عندما يربّيه، ولا نعرف في حبّ الإنسان لأهل بلاده مقاما

أسمى من هذا المقام.

«كان يتألّم، ويكاد اليأس يستولي عليه أحيانا، فلا يزيد عن قوله :

ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعبي
لأقضي الحياة وحدي بيأس

هذه روح زكيّة، ونفس عفّة خيّرة تبكي على شعبها، وترثي له، فليبك عليها شعبها ما شاء له البكاء، وما أسعفته الدموع.

«لقد أشاروا إلى أنّ أبا القاسم كان ضعيفا يئنّ من ألم مبرّح، ويبكي من كلّ شيء حوله. والحقيقة التي يجب الإصداع بها هنا، أنّ ناظم القصيدة (النبيّ المجهول) كان نهاية ما يصل إليه الشاعر من قوة النفس وعظمتها».

«الشاعر الضعيف لا يهتمّ إلاّ بنفسه وبمورد رزقه، وهو الذي يقصر شعره على الغانيات، لأنه طالب جاه أو مال. وإذا شكا فلا يشكو إلا سوء حاله، وكيف دار به الزمان، وأنزله من أعلى إلى أسفل. فهل في ديوان أبي القاسم بيت واحد تشمّ منه هذه الروائح؟ كلاّ. إنّه كان شاعر الشعب يسمو فوق الجميع ليحتضنهم بجناحيه، بما فيهم من طائع وعاص، ووديع ومشاغب (1).

---

(1) مجلة العالم الأدبي، سنة رابعة عدد2 ص4، 29.

ثم يختم الأستاذ بدرة حديثه الرائع بالعبارات التالية :

«... ألم يتبيّن لكم في الرجل وجه من العظمة قلما يرى في العظماء؟ بلى! والله إنّكم لترونه رائعا كالشمس. ترون في الشابّي قوّة ساحقة، قوّة فولاذيّة يصحبها حنان الشاعر، وتغطّيها ابتسامته العذبة.

«ولكن عزاؤنا فيه هو أنّه البطل الذي تقدّم الطليعة، ووصل إلى غايته كسيل جارف، يريد أن يروي الأرض المجدبة وقد روّاها»(1).

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المصدر السابق، ص29

حالة الشعب التونسي

كان الشابّي شاعرا متألما شديد الإحساس بآلامه، كثير الشكوى والتبرّم منها. ولكنّ آلامه لم تكن في أكثرها إلاّ آلام شعبه التي تجاوبت أوجاعها مع يقظة قلبه وشدّة إحساسه القويّ بها، وبآثامها وظلامها، فكان خير معبّر عنها ومصوّر لها. ونظرة قصيرة إلى حالة الشعب يومئذ تعطينا المقياس الصحيح الذي نحكم به على الشابّي وشعره، وعلى معاصريه من الشعراء التونسيّين وشعرهم أيضا:

كان الشعب التونسيّ في ذلك الحين – أي بين سنتي 25 – و34 مستسلما لتقاليد متعفّنة تحجب عنه النور والحياة وكلّ إحساس بالكرامة المهانة والحال الذليل. وكان ثمّة رجال رجعيّون فرضوا أنفسهم على الشعب، وعلى قيادته وتوجيهه باسم الدين، أي باسم الله، فحرّموا على الناس استخدام عقولهم، وحرّموا على الشعب السير في قافلة الإنسانية، قافلة التقدّم والحضارة، وجعلوه يعتقد أنّ بؤسه وظلامه وجهله ومذلته إنّما هي نعمة من الله، لأنه لو شاء لغيّرها ولو شاء لما قدّرها، وكلّ شيء بقضاء الله وقدره، وثواب الله في الآخرة إنّما هو لمن أذعن لهذا القضاء والقدر، أمّا عذاب جهنّم فهو لكلّ من خالف هذه المشيئة، وثار على واقعه المريض الذي زعموا أنّه من صنع الله.

وطبيعيّ أنّ هذا الإرهاب المفروض باسم الله، والتهديد الدائم بلعنته الأبديّة، وعقابه الشديد في الآخرة، إنّما يهيّئ جوّا صالحا للكبت والحرمان بأنواعهما الكثيرة، ويمهّد السبيل للاستعمار، لكي يبقى ويستمرّ، ويقف أيضا في

وجه كلّ محاولة للإصلاح والنهوض، ويجعل الشعب فريسة بأيدي المستعمرين، ومن يسير في ركابهم من انتهازيّين مارقين، أو متكلّمين باسم الدين.

وفي مثل هذه البيئة الخانعة المريضة يصعب جدًا أن يفهم الناس شاعرا كالشابّي. حتى من الطبقة المتقدّمة في الفهم أو في العلم. فكان طبيعيا أن يجد الشابّي نفسه غريبا بين أفراد شعبه وبين الشعراء أنفسهم، لأنّ ثمّة فارقا كبيرا بين روحه المتوهّج وأرواحهم الخاملة، بين نفسه المتأجّجة ونفوسهم الراكدة، بين قلبه المتيقّظ المتّقد وقلوبهم النائمة الباردة.

وهكذا ضاع الشابّي في قومه، وضاعت عبقريّته فيهم، فلم يفهموا لغته، ولم يستجيبوا لدعوته، بل رجموه بالكلام، وسلقوه بألسنة حداد: (١)

في صباح الحياة ضمّخت أكوا
بي، وأترعتُها بخمرة نفسي
ثم قدّمتها إليك، فأهرقـ
ـت رحيقي، ودست يا شعب كأسي
فتألّمت... ثم أسكتّ آلا
مي، وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضّدت من أزاهير قلبي
باقة لم يمسّها أيّ إنس
ثم قدّمتها إليك.. فمزّقتَ
ورودي، ودستها أيّ دوس
ثمّ ألبستني من الحزن ثوبا
ويشوك الصّخور توّجت رأسي

---

(١) كان صاحب مجلة النديم التونسية التي كانت تصدر في عصر الشابي مرة كل أسبوع، كان صاحبها من أشد المحاربين للشابي وللطليعة الرائدة من الشباب التونسي. فكان الشابي والطاهر الحداد من ضحايا رجعيته وجموده.

فما الذي صنع الشابّي، حتى ألبسوه ثوبا من الحزن، وتوّجوا رأسه بالشّوك؟ لم يرتكب إثما ولا جريمة، وإنّما دعا شعبه إلى الحياة، إلى النور، إلى الحرية، إلى الثورة على الظلم والاستبداد وفكّ القيود التي غلّ المستعمرون بها سواعد الشعب، وضلّلت الرجعيّة بأفيونها عقول أبنائه، فجعلتهم يستطيبون المذلة وعيش الكهوف.

ولكنّ الشابّي جاء يندّد بذلك كله، ويوقظ إحساس الجماهير والشبيبة الواعية نحو الحقّ والعدالة، ويبعث الوعي والحياة في ضمير الشعب الخادر القنوع:

يا بني الأوطان هبّوا فلقد طال الوجوم
وانهضوا نهضة جبّار بعزم مستقيم
لست أبغي نهضة العاجز يتلوها الحسوم

ويدرك الشاعر أنّ النّهوض لا يتمّ، بل ولا يبدأ إلاّ إذا تحرّكت إرادة الحياة في قلب الشعب، تماما كما هي قصّة الحياة في كلّ كائن حيّ، فيعلن هذه الحقيقة الواعية في أبيات ثلاثة اختار لها عنوان (سرّ النهوض):

لا ينهض الشعب إلاّ حين يدفعه
عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه
والحبّ يخترق الغبراء مندفعا
إلى السماء، إذا هبّت تناديه
والقيد يألفه الأموات ما لبثوا
أمّا الحياة فيبليها وتبليه

ويعود للشعب مرة أخرى، فيمطره بوابل من أسئلته الثائرة، مستنكرا مظاهر الجمود والخوف والاستسلام التي

استمرأها الشعب، ورضخ لها، معلنا في مرارة ويأس أنّ أشقى شعب في الأرض من كان ماضيه حيّا ويومه ميتا (أيّها الشعب) :

أين يا شعب قلبك الخافق الحسّاس؟ أين الطّموح والأحلام؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنّان؟ أين الخيال والإلهام؟
أين يا شعب فنّك الساحر الخلاّق؟ أين الرسوم والأنغام؟
إنّ يمّ الحياة يدوي حواليك، فأين المغامر المقدام؟
أين عزم الحياة؟ لا شيء إلاّ الموت، والصمت والأسى والظّلام
عمر ميّت وقلب خواء، ودم لا تثيره الآلام
أيّ عيش هذا؟ وأيّ حياة! ربّ عيش أخفّ منه الحمام!

***

كلّ شيء يعاطف العالم الحيّ ويذكي حياته ويفيده
والذي لا يجاوب الكون بالإحساس، عبء على الوجود وجوده
كلّ شيء يساير الزّمن الماشي بعزم، حتى التّراب ودوده
كلّ شيء إلاّك حيّ عطوف، يؤنس الكون شوقه ونشيده
فلماذا تعيش في الكون يا صاح وما فيك من جنى تستفيده؟!
لست يا شيخ للحياة بأهل، أنت داء يبيدها وتبيده
أنت قفر جهنّميّ لعين مظلم قاحل مريع جموده
لا ترفّ الحياة فيه، فلا طير يغنّي، ولا سحاب يجوده

***

أنت يا كاهن الظّلام حياة تعبد الموت، أنت روح شقيّ
كافر بالحياة والنور، لا يصغي إلى الكون قلبه الحجريّ
أنت قلب لا شوق فيه ولا عزم، وهذا داء الحياة الدويّ
أنت دنيا يُظلّها أفق الماضي وليل الكآبة الأبديّ
مات فيها الزمان والكون إلاّ أمسها الغابر القديم القصيّ
أنت لا شيء في الوجود، فغادره الى الموت، فهو عنك غنيّ
والشقيّ الشقيّ في الأرض شعب يومه ميّت وماضيه حيّ

مع الشعب دائما

ثم يخاطب الشعب في ابن من أبنائه، مبصّرا إياه بحقيقة وجوده، وبأنّه إنّما خلق ليعيش حرّا، فلماذا يرضى القيد والعبوديّة، ويتخلّف عن السير في قافلة الحياة والحرية :

خلقت طليقا كطيف النسيـــم
وحـرّا كنور الضـحى في سمـــاه
تغرّد كالطير أين اندفعـــت
وتشدو بما شاء وحي الإلـــه
وتمرح بـين ورود الصبـــاح
وتنعم بالنـــور : أنّى تـــراه
وتمشي كما شئت بين المـروج
وتقطـــف ورد الـرّبى في ريـــاه
كذا صاغك الله يا ابن الوجـود
وألقتك في الكـون هـــذي الحيـاه
فمالك ترضى بذلّ القيـــود
وتحني لمـــن كبّلـوك الجبـــاه؟!
وتسكت في النفس صوت الحياة الـ
ـقويّ، إذا مـــا تـــغـنّى صـــداه
وتطبق أجفانك الناعســـات
عن الفجر.. والفـــجر عـــذب ضياه
وتقنع بالعيش بين الكهـــوف
فأين النشـــيد؟ وأيـــن الأيـــاه؟
أتخشى نشيد السّماء الجميـل؟
أترهب نـــور السّـــما في فـضـــاه؟
ألا انهض وسر في سبيل الحيـــاة
فمن نـــام لم تنـــتظره الحيـــاه!

ولكنّ الشعب لا ينهض، ولا يسير في الحياة، لأن ظلمات السنين كثيفة هائلة في نفوس أبنائه، ولأن بذرة الحياة لم تنم بعد في قلب المجتمع، ولأن أعداء التقدّم يقفون بسلاح

المستعمر في طريق العاملين، فيحاربونهم باسم الله مرة وبقوّة الطغيان مرة أخرى.

ولكنّ الشابّي يحسّ بذلك كلّه، وينالـه الاضطهاد والجحود والازدراء والتحقير، كما ينال بقيّة المصلحين في شعبه، الدّاعين إلى التقدّم والحرية، فيسجّل ذلك في شعره قائلا :

كلّما قام في البلاد خطيـب(1) موقظ شعبه يريد صلاحـــه
أخمدوا صوته الإلهيّ، بالعسـ ـف، أماتوا صداحه ونواحـــه
ألبسوا روحه قميص اضطهـاد فاتك، شائك يردّ جماحـــه
وتوخّوا طرائق العسـف والإر هـاق معه، وما توخّوا سماحـه
هكذا المصلحون في كلّ صوب رشقات الردى إليهم متاحـه
غير أنّا تناوبتنا الرزايـــا واستباحت حمانا، وأيّ استباحه!

وتقوى الرجعية الباغية على طليعة الأحرار، فيلعن الحداد من فوق منابر الجوامع، ويحكم على الشابّي بالجحود والكفر على أعمدة الصحف، وتتألّب عناصر الرجعيّة على بذرة الإصلاح النابتة في قلوب الشبيبة. فإذا بالشابّي ثورة تزمجر، وبركان ينفث النار والحمم والموت والهلاك على أعداء الشعب وجذوع الفساد والرجعية، وإذا بالشابّي يحترق في أتون من النقمة، ويتمنّى أن يكون أيّ شيء مدمّر، ليهلك أعداء الوطن والحرية، ويبعث في الشعب الحياة واليقظة :

أيّها الشعب ليتني كنت حطـّا با فأهوي على الجذوع بفأسي!
ليتني كنـت كالسيّول إذا سا لت تهدّ القبور رمسا برمس !

---

(1) هو الزعيم النقابي ومؤسس أول منظمة نقابية تونسية. وقال الشابّي هذه القصيدة إثر محاكمة محمد علي من سلطة الاستعمار عام 1925 والحكم عليه بعشر سنوات في المنفى.

ليتني كنت كالرّياح، فأطـوي ... كـلّ ما يخنق الزّهور بنحسي
ليتنـي كنت كالشتّاء أغشّـي ... كـلّ ما أذبل الخريف بقرسـي
ليت لي قوّة العواصف يا شعـ ... ـب فـألقي إليك ثورة نفسي
ليت لي قوّة الأعاصير إن ضجّ ... ت فأدعـوك للحياة بنبسـي!
ليت لي قوّة الأعاصير..! لكن ... أنت حيّ يقضي الحياة برمس!
أنت روح غبيّة تكره النـور ... وتقضي الدهور في ليل ملس!
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت ... حوالـيك دون مـسّ وجسّ!

أيّ حبّ أقوى من هذا؟ وأيّ تعلّق أبلغ من هذا؟ وأيّة وطنيّة سامية حانية تشبه هذه الوطنيّة القويّة الثائرة التي تعبّر عنها أبيات الشابّي؟!. بل إنّني أزعم أنّ ما يعبّر عنه جوّ الأبيات هو أعظم وأسمى، وأقوى وأعنف ممّا تعبّر عنه الألفاظ المتساوقة في الأبيات نفسها. إنّ قصيدة (النبيّ المجهول) وهذه الأبيات منها بوجه خاصّ، لهي أعظم شعر قاله شاعر عربيّ في حبّ الشعب، وفي التعلّق به، ورغبة الخير له. وأيّ حبّ أعظم وأعمق من حبّ رجل يرى شعبه حبيسا في أقفاص من العبوديّة لا تعدّ : الرجعية والجهل، والفقر والمرض، والخرافات ورجال الدين، وحول ذلك كلّه استعمار بغيض حقود، يستغلّ إمكانات الشعب،ويسعى ليل نهار ليبقيه راسفا في عبوديّاته المحليّة، حتى لا يدرك معنى الحياة، ولا يحسّ بكرامته المهانة، ولا يثور على أوضاعه السخيفة وواقعه المريض؟ أيّ حبّ أعمق من حبّ إنسان يرى ذلك كلّه، فيتمنّى أن يكون كلّ شيء مدمّرا ليطهر شعبه من أوصابه، ويخلصه من أغلاله، ويبعد عنه الشرّ والفساد والرجعيّة والطغيان؟.

ولنستمع مرة أخرى إلى (النبيّ المجهول) في حبّه وحنانه يغمر بهما وجه شعبه الحبيب:

أيّها الشعب أنت طفل صغير ... لاعب بالتراب والليل مغس!
أنت في الكون قوّة لم تسسها ... فكرة عبقريّة ذات بأس!
أنت في الكون قوّة كبّلتها ... ظلمات العصور من أمس أمس
والشقيّ الشقيّ من كان مثلي ... في حساسيّتي ورقّة نفسي!

وهكذا نجد الشابّي، حتى في أشدّ حالات الغضب والثورة يدافع عن الشعب، ويرى فيه قوّة جبّارة تحتاج إلى من يسوسها بإخلاص وعناية، فيقودها إلى الخير والنور والحرية.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

إيمان بمستقبل الشعب

لم يغب عن الشابّي وقلبه قطّ إيمانه بأنّ الشعب التونسيّ له مجد، وفيه حيويّة، وأنّ المستقبل سيكون له مهما طال عهد الظلام والعبودية :

إنّ ذا عصر ظلمة غير أنّي من وراء الظلام شِمتُ صباحه
ضيّع الدهر مجد شعبي ولكن ستردّ الحياة يوما وشاحه!

إنّ الشابّي ليلتقي في هذين البيتين، العامرين بالتفاؤل والرجاء، مع الشاعر اللبنانيّ رئيف خوري القائل في نفس المعنى :

الشعب ما مات يوما وإنّه لن يموتا
إن فاته اليوم أمر ففي غد لن يفوتا

ثم يلتفت الشابّي إلى أعداء الشعب الذين سبّبوا له الجهل والفقر والمرض، وتحكموا في حياته ومصيره بالجبروت والطغيان، فينذرهم بثورة الشعب الآتية، وبيوم يثأر فيه لحقّه المسلوب وكرامته المهانة :

ألا أيّها الظالم المصعّر خدّه
رويدك، إنّ الدهر يبني ويهدم!
أغرّك أنّ الشعب مغض على قذى
لك الويل من يوم به الشرّ قشعم!
سيثأر للعزّ المحطّم تاجه
رجال، إذا جاش الردى فُهُمُ هُمُ!

رجال يرون الذلّ عارا وسبّـــة
ولا يرهبون الموت والموت مقـــدم!

وهل تعتلي إلاّ نفوس أبيّـــــة
تصدّع أغلال الهـــوان وتفـصـــم!
ألا إنّ أحلام الـبلاد دفينـــة
تجمجم في أعمـــــاقها ما تجمـجـم
ولكن سيأتي بعد لأي نشورهـــا
ويـــنبثق الـــيوم الذي يترنـــّم!
هو الحقّ يبقى راكدا، فإذا طغى
بأعماقه السّـــخط العصوف يدمـدم!
وينحطّ كالصخر الأصمّ إذا هوى
على هام أصنـــام العتوّ، فيحـــطم
إذا صعق الجبّـار تحت قيـــوده
سيعلم أوجاع الحـــياة ويفهـــم!!

هل كان الشابّي يتنبّأ بأيامنا هذه، ويصف حالة تونس الراهنة؟. بلى! لقد كان يتنبّأ بذلك كلّه، بل ويعرف أنّ أناشيده لن تموت، وأنّ بذوره ستنبت يوما ما، وأنّ شرارته الخافتة في عصره ستكون مع الأيام نارا يمحق ضرامها الأعداء، ويضيء نورها لشعبه طريق الخلاص والحرية :

يا شعب قد خلّفت فيك شـــــرارة
ستشـــبّ يوما نارهـــا بضـــــرام

***

يقولون : صوت المستذلّين خافـــت
وسمع طواغيت التجبّر أصـــــخم (١)
وفي صيحة الشعر المسخّر.. زعزع
تخرّ له شمّ العـــروش وتـــهـــــدم!
ولعلعة الحقّ الغضوب لها صـــدى
ودمدمة الحرب الضروس لهـــا فـــم!
إذا التفّ حول الحقّ قوم فإنّـــــه
يصـرّم أحـــداث الزمـــان، ويبـــرم!

ها إنّ كلّ ما قاله الشابّي قد تحقّق، وسيزداد تحقّقا مع الأيّام. ها هو الحقّ يتحرّك، ويدمدم في قلوب التونسيّين كالبركان، فيعصف الظلم والطغيان، ويصنع لتونس مجدها وحريتها، ويبني لها استقلالها ومستقبلها. وهذا ما كان الشابّي يهدّد المستعمرين ويتوعّدهم به، وبالمستقبل المظلم الذي يتربّص بهم، يوم يثور الشعب على الظالمين والطغاة، فيسقيهم الموت أنواعا ويبعث بأشلائهم إلى الجحيم. فلنستمع إلى شاعرنا الجبّار وهو يتحدّى، ويتوعّد طغاة العالم جميعا بقصيد يسمو به فوق القمم، ويجعله عملاقا يمسك السماء بيديه، بل يمشي عليها بقدميه، ويضرب في أجوائها بجناحين من نار ونور. إنّ

(١) أصخم : أصم

قصيدته (إلى طغاة العالم) لترتفع به إلى صفّ الشعراء العالميّين، وتجعله شاعر الإنسانية المعذّبة والبشريّة الكادحة المناضلة. إنّها أغنية جميع الشعوب الزاحفة نحو الحرية بالدماء والأشلاء، وأنشودة خالدة لكلّ المظلومين :

ألا أيّها الظالم المستبدّ حبيب الفناء عدوّ الحياه
سخرت بأنّات شعب ضعيف وكفّك مخضوبة من دماه
وعشت تدنّس سحر الوجود وتبذر شوك الأسى في رباه

***

رويدك! لا يخدعنّك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح
ففي الأفق الرحب هول الظلام وقصف الرعود، وعصف الرياح
ولا تهزأنّ بنوح الضعيف فمن يبذر الشوك يجن الجراح

***

تأمّل هنالك إنّي حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل
وروّيت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع حتى ثمل
سيجرفك السيل، سيل الدما ويأكلك العاصف المشتعل!

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE
المكتبة الوطنية التونسية

لم يقف الشابّي في وطنيّته عند حدّ إرادة الخير للشعب وإشعال الثورة في نفوس أبنائه، ولا اكتفى بتهديد الظالمين بها، وإنّما أعلن عن استعداده للموت في سبيل تونس، وعبّر عن حبّه لها وتعلّقه بها، كما لم يفعل شاعر سواه. فلنستمع إلى هذا الابن البارّ والشاعر المشغوف بحبّ تونسنا الجميلة :

أنا يا تونس الجميلة في لجّ الهوى قد سبحت أيّ سباحه
شرعتي حبّك العميق وإني قد تذوّقت مرّه وقراحه
لا أبالي وإن أريقت دماي فدماء العشّاق دوما مباحه

ومرة أخرى استمعوا إلى الشابّي وهو يحثّ على العمل بإخلاص لتونس والسعي لخيرها واستقلالها، والكدح والكفاح من أجلها، والإيمان والتفاؤل بمستقبلها. قال الشابّي في رسالة بعث بها إلى صديقه محمد الحليوي(١):

«إنّ تونس لفي حاجة إلى أبنائها الذين تتدفّق في دمائهم عزمات الفتوة ونخوة الشباب ونشوة الأحلام.

(١) ولد 1907 وتوفّي 1978

«إنّ تونس لفي حاجة إلى أن تتقدّم بخطوات ثابتة في سبيل النور والزهور».

«إنّ تونس لفي حاجة إلى أن ترفع رأسها عاليا حتى تشاهد أنوار السماء وشموسها، وحتى تقبّل أضواء النجوم».

«ولئن كانت تونس فقيرة إلى هذا الضرب من أبنائها، هذا الضرب الذي يحنّ إلى أن يعيش عيشة كلّها حقّ ولذة وجمال، وكلّها إحساس وشعور وعواطف، إن كانت تونس فقيرة إلى هذا النوع من أبنائها، ليجب على النفر القليل منهم أن يبذلوا كلّ ما في جهدهم من عزم وقوّة وحميّة وشباب، حتى يستطيعوا أن يكونوا نشئا حيّا شاعرا بواجبه لأمته، وللحياة وللوجود، وأن يخلقوا في الواقع ذلك الوسط الحيّ الجميل، الذي نتصوّره في أحلامنا ثمّ نلتفت فلا نلمح له أثرا» (1).

ولقد تحقق اليوم لتونس كلّ ما يريده لها الشابّي، من وعي ونهوض وتقدّم، وبقي شيء واحد... وذلك هو الحرية. الحرية التي دعا لها الشابّي وكافح من أجلها، واضطهد بسببها ومات، ولم يرها في بلاده. مات، وكان يمكن أن يعيش إلى أن تنال بلاده حريتها واستقلالها. وقد نالتهما فعلا بعدما انتفضت إرادة الحياة في أعماق الشعب، وزأرت الثورة في كلّ مكان، وأطبق أبناء تونس على الظالمين والمارقين من كلّ الجهات، وهكذا ارتفع علم تونس الخضراء على أشلاء الضحايا حرّا في الآفاق، مستقلاّ

(1) مجلة العالم الأدبي : س4 ع2 ص27.

بجميع أرجاء الوطن، وكتبت وثيقة الخلاص والحرية بدم الشهداء، يوم 20 مارس 1956. وهكذا تحقّقت آية الشابّي الخالدة التي ستبقى نشيدا للشعوب المكافحة ما بقيت على الأرض حياة، وما بقي فيها جور وظلم واستغلال. ولسوف يحتفل العالم بأسره بتمجيد الشابّي، الذي كان شاعر الإنسانية كلّها.. لا شاعر تونس ولا شاعر العرب وحدهم. يومئذ سوف تسير مواكب الشعوب في أعياد الحرية الشاملة، وهي تردّد :

إذا الشّعب يوما أراد الحياة ... فلا بدّ أن يستجيب القدر!
ولا بدّ للّيل أن ينجلي ... ولا بدّ للقيد أن ينكسر!

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE TUNISIENNE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الطبيعة عند الشابّي والنزعة الوطنيّة

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

إذا كان الخطباء الوطنيّون يلهبون الجماهير بعباراتهم الناريّة، ويبعثون فيهم روح الحماس الجماعيّ، فيقودونهم كالقطعان إلى حيث يشاؤون،

وإذا كان الشعراء الحماسيّون يشعلون النار في مشاعر الجماهير بقصائدهم العاطفيّة المحمومة فيفعلون فيهم الأعاجيب،

وإذا كان الكتّاب البارعون يعالجون قضايا الأمة ومشاكل الشعب بروح وطنيّة عالية، وبأسلوب حماسيّ عنيف أو علميّ دقيق، فينالون إعجاب القرّاء وتقدير المواطنين،

إذا كان ذلك كلّه فيه خدمة للوطن، وذود عن حماه، ودفاع عن أهله وتوجيه لبنيه، وإصلاح لحاضره، وبناء لمستقبله، فإنّ الحديث عن جمال الوطن ووصف محاسنه وروائعه الطبيعيّة والفنيّة والعمرانيّة والصناعيّة وغيرها، لا تقلّ أهميّة وخطرا ونفعا وأثرا عن كلّ ما تقدّم ذكره. ولا يستطيع أن يقدّر هذه الحقيقة حقّ قدرها إلا من أدرك بوعي أثر ذلك في التربية الوطنية والتوجيه الإنساني.

فالذين لا يعرفون شيئا عن جمال بلادهم وما تزخر به من خيرات طبيعيّة وإنتاجيّة، وما تملكه من إمكانات في شتّى الميادين، الذين لا يعرفون شيئا من هذا، ولم يشاهدوا عن كثب وبتأمّل تلك الخيرات والإمكانات، ولم يحسّوا إحساسا قويّا صادقا بشتّى مظاهر الجمال في ذلك كلّه وفي كلّ شبر وزاوية وركن من أنحاء الوطن، الذين لم يروا سهول الوطن وجباله ومدنه وقراه، ولم يتنقّلوا بين باديته وصحرائه، وسواحله وثغوره، ولم يتعرّفوا إلى كلّ شيء

فيه، من إنسان وغير إنسان، هؤلاء لا يحسّون بحبّ الوطن إحساس العارفين الجوّابين، ولا يدركون تماما خطر ضياع جزء منه أو بقائه ذليلا مضطهدا.

فالكتّاب والشعراء الذين يصفون لنا جمال الوطن، ويعرضون علينا صورا رائعة من محاسنه، إنّما يحرّكون فينا حاسّة الجمال والحبّ التي هي أدقّ حواسّ الإنسان، وأقواها أثرا في النفس. وهذا بعض ما يهدف إليه شاعر، أو كاتب، حينما يصف لنا غوطة الشام أو حدائق تونس، أو ثلوج لبنان، أو نخيل العراق، أو نيل مصر أو رياض فلسطين، أو عمران القاهرة والدار البيضاء وحلب وبغداد... عندما يفعلان ذلك يقدّمان أبدع الصور عن جمال الوطن، ويحرّكان في نفوس المواطنين لذّة الإحساس بالجمال الوطنيّ وبالتالي لذّة الشعور بأنّ كلّ هذا حقّ طبيعي لنا، يجب أن نتمتّع به وحدنا، ويجب أن يكون أبد الدهر ملك أجيالنا، لا يد لأجنبيّ عليه، ولا نفوذ لمستعمر فيه.

ومن هنا تدرك القيمة الحقيقية لقول بعض النقّاد: «إنّ شعراء الطبيعة والجمال لا يقلّون وطنية عن شعراء الحماسة وكتّابها». ذلك أنّهم يربّون شعور العزّة الوطنية عن طريق إثارة الإحساس الوجدانيّ، واللذة الروحيّة في النفوس.

وعندي أنّ حبّ المواطن لوطنه حبّا قويّا صادقا، عنيفا جارفا، لن يكون في مداه الواسع، ومثاله الرفيع، ما لم يعرف هذا المواطن معرفة حقيقيّة تامّة كلّ شيء عن

وطنه، ويتحسّس بنفسه جمال هذا الوطن، فتمتلئ رئتاه بهوائه، وتبهر عينيه صور روائعه، وتجوس رجلاه كلّ شبر منه، وتصافح كفّاه كلّ يد فيه... عندئذ فقط يدرك عن معرفة وعلم، وعن إحساس صادق وشعور عميق، أنّ وطنه أغلى من الحياة، وأنّ أمّته أحقّ من أيّ أمّة أخرى بهذا الجمال، وبكلّ خير تزخر به أرض الوطن، ومن ثمّ يعمل من أجل عزّة شعبه وحرية وطنه عملا إيجابيا مثمرا ذا نفع كثير وجليل.

وأبو القاسم الشابّي يسمو إلى قمّة الإبداع في قصائده التي وصف بها الطبيعة الفاتنة في أرجاء بلاده الحسناء.

لم يختزن الشابّي صور الطبيعة في ذاكرته من وصفيّات المجالس والأحاديث العابرة، ولا استوعبها من مطالعات الكتب الأدبيّة ودواوين الشعر، كما فعل كثير من كتّابنا وشعرائنا المعاصرين، بل إنّه كان يجوب أنحاء تونس مع الربيع والخريف والصيف والشتاء، فيملأ عينيه بمشاهد الطبيعة الساحرة وحشود الجمال الخلاّب، ويتجاوب إحساسه الرفيع وشعوره المرهف، مع كلّ زهرة أو شجرة أو طائر، وكلّ لون ومنظر ومكان.

ولم تعرف تونس ولا الشعر العربيّ شاعرا قويّ الانفعال، حادّ الشعور، رائع الوصف، دقيق التصوير، رقيق العبارة، عذب الرنين كالشابّي في شعره عموما، وفيما وصف به الطبيعة بوجه خاصّ.

ومن هنا كان لشعره الطبيعيّ أثر السحر في النفوس، وفعل الخمر بالرؤوس. ومن يقرأ قصائده في هذا الباب، وخصوصا القصائد (أغاني الرعاة)، (تحت الغصون)،

(أراك)، (الجنة الضائعة)، (قلب الأم)، (ألحاني السكرى).من يقرأ هذه القصائد يرتو إحساسه بالجمال والحبّ، ويشعر في شوق توّاق ولهفة دافقة، بأنّ في نفسه رغبة ملحّة إلى مشاهدة هذه الطبيعة العذراء التي وصفها الشابّي وتغزّل بجمالها وفتنتها، وودّ أن يفنى ويتلاشى بين أحضانها.

ولم تكن للشابّي طيلة حياته أمنية أو رغبة يحنّ إليها، ويرغب في تحقيقها، كالغاب بسروه وسنديانه، وبكلّ ما فيه من نبات وحيوان، وسماء صافية، وماء نمير :

ليت لي أن أعيش في هذه الدنـــــ
ـيا بعـــيدا بوحـــدتي وانـفـــرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الغـــا
بات وبين الصّنوبر الميّـــاد
ليس لي من شواغل العيش ما يصـــ
ـرف نفسي عـن استـــماع فـــؤادي
أتغنّى مع البلابل في الغـــــــاب
وأصـــغـــي إلى خريـــر الـــوادي
وأناجي النجوم والفجر، والأطـــ
ـيار والنـــهر، والضيـــاء الهـــادي

حتى الصحراء كان يجد فيها لذة عميقة وفتنة طاغية. وكان حنينه لها ليس أقلّ من حنينه للغاب :

«جمال الصحراء الذي يمتدّ أمامي جمال ساهم محموم. ولقد يخيّل إليّ أحيانا أنّه يفكّر فيما وراء العالم الصاخب

الموّار... في معاني الفناء والموت والظلام. ولقد يبلغ بي الوهم أحيانا أن أحسبه نفسا شاعرة مسلولة تناجي في حمّى السقام أحلامها الحزينة الصامتة الموشّحة بأردية الموت»(١).

ولا عجب، فلقد كانت رمالها الذهبيّة أوّل مشهد كحّل عينيه الصغيرتين في طفولته الأولى، كما شبّ بين ضفاف شطّ الجريد التي تحيط بها الصحراء وكثبانها المتلاحقة كقوافل الإبل، من جانبها الغربيّ والجنوبيّ. وتعانقها واحات النخيل وبساتين الليمون والبرتقال من أطرافها الأخرى، يزيّن ذلك كلّه ماء عذب يجري من عيونه الكثيرة، في سواقيه وجداوله، كأنه أمواج البحر الغافية بين أحضان الفتنة الساهمة.

من هنا كانت الطبيعة عين الشابّي التي ترى، وأذنه التي تسمع وقلبه الذي يخفق بالحبّ والحنان. فإذا تكلّم الشابّي أو كتب، وإذا فكّر أو صوّر، وإذا نظم أو نثر، وإذا وصف الحبّ أو الحياة، المرأة أو الطفل، الأمّ أو الحبيب، الوطن أو الشعب، الأعداء أو الأعزّاء، كان للطبيعة أثرها في كلّ ذلك. وليس من قصيدة أو مقالة، ولا من موضوع صغير أو كبير، تحدّث عنه الشابّي، أو صوّر إحساسه به ورأيه فيه، إلاّ وكانت صوره لوحات ملوّنة من مشاهد الطبيعة الرائعة، من سماء وماء، وشجر وطيور، وغاب

(١) مجلة الأفكار التونسية : س١ ع١ ص20.

وصحراء، وجبال وبحار. على قلبه الشاعر اليقظ تعيش الكائنات جميعا، بل العالم بأسره (قلب الشاعر) :

كلّ ما هبّ وما دبّ، وما ... قام أو حام على هذا الوجود
من طيور وزهور وشذى ... وينابيع وأغصان تميد
وبحار وكهوف ونرى ... وديار، وبراكين وبيد
وضياء وظلال ودجى ... وفصول وغيوم ورعود
وثلوج وضباب عابر ... وأعاصير، وأمطار تجود
وتعاليم ودين ورؤى ... وأحاسيس وصمت ونشيد
كلّها تحيا بقلبي حرّة ... غضّة السحر كأطفال الخلود
هاهنا في قلبي الرحب العميق ... يرقص الموت وأطياف الوجود
هاهنا تعصف أهوال الدجى ... هاهنا تخفق آلام الورود
هاهنا تهتف أصداء الفنون ... هاهنا تُعْزفُ ألحان الخلود
هاهنا تمشي الأماني والهوى ... والأسى في موكب فخم النشيد
هاهنا الفجر الذي لا ينتهي ... هاهنا الليل الذي ليس يبيد!
هاهنا ألف خضمّ ثائر ... خالد الثورة مجهول الحدود
هاهنا في كلّ آن تمّحي ... صور الدنيا وتبدو من جديد!

وقد يجد كثير من الأدباء والنّقاد أكثر من سبب لتعليل ذلك. وقد يردّونه إلى مزاجه أو طفولته، وإلى ثقافته أو نزعته الرومانتيكيّة. ولكنّي أرى في ذلك – من زاوية خاصّة - شغفا عميقا ببلاده وهوى شديدا لوطنه، جعله يفنى في حبّه ويعكف على عبادته في هيكل الطبيعة المقدس، لما لوطنه من جمال وفتنة، وسحر وروعة، حبته بها جميعا يد الصانع الأوّل فكانت طبيعته خلاّبة كأنها حسناء من الخلد، أو حلم أسطورة في حياة شاعر إغريقي.

وفي اعتقادي أنّ شعر الطبيعة ونثره عند الشابّي لا يقلّ قيمة وأثرا، من الناحيتين النفسيّة والوطنيّة، عن الشعر الوطنيّ نفسه، لما يوحي به في النفوس من هوى للوطن، ويثيره فيها من شوق له وتعلّق به، وحبّ لجماله وطبيعته. ومن أحبّ طبيعة بلاد أو جمالها أو غاباتها، إنّما هو مدفوع إلى حبّها. فإذا ما كان من أبنائها تحوّل حبّه إلى عمل لخيرها، وتضحية في سبيلها. وبهذا نعتبر شعر الشابّي في وصف الطبيعة شعرا وطنيّا، لأنّه يحرّك في النفوس إحساسها بالجمال، ويحبّب إليها هذه الأرض الجميلة التي يصورها في دقة وإبداع، ويتحدّث عنها كما يتحدّث الصوفيّ عن الذات العليا أو وحدة الوجود.

وليس لي هنا أن أشير إلى نزعة الشابّي الصوفيّة، وما يراه بعينيه، ويحسّه بوجدانه من وحدة تامّة بين أرجاء الكون ومخلوقاته، فإنّ ذلك يخرج بنا عن السّياق المقصود. وحسبي أن أذكر أنّ للشابّي تعلقا شديدا لا بالطبيعة وحدها، ولا ببلاده فقط، بل بالكون كلّه وبالإنسانية جميعا. ومنْ يقرأ شعره بإمعان ونثره بعناية سيجد ذلك واضحا فيهما كلّ الوضوح. وقد يعود ذلك إلى أثر الأدب المهجريّ الذي كان أوّل طعم ذاقه من طعوم الأدب وأصنافه، فبقي بارزا في تفكيره وشاعريته، بل وفي كثير مما يصدر عنه، ويقدّمه من شعر ونثر. وسواء أكان صحيحا كلّ الصحة أو بعضها، أو غير صحيح بالمرة في نظر بعض النّقاد (١) الذين لا يرون هذا الرأي، فإنّ ممّا لا شك فيه أنّ للأدب المهجريّ - لا سيّما إنتاج جبران وميخائيل نعيمة وأبي ماضي- أثرا لا يمكن إنكاره أو التغاضي عنه .

---

(١) انظر نقد أبي شادي لرأي المؤلف هذا، في كتاب (الشابي - حياته وشعره) (ص 22 الطبعة الثانية).

على أنّ حبّ الشابّي للطبيعة وتغنّيه بها، ليس وليد تقليد لما قرأ في الأدب المهجريّ بما فيه من تعلق بالطبيعة وعبادة لها، ولا عن غيره من المطالعات الأخرى(1)، بل هو وليد طبيعته الخاصّة أولا، وطبيعة بلاده ثانيا. وفي النماذج المختلفة التي نسوقها هنا ما يغني عن الإضافة والشرح. لنبدأ بهذه القطعة الرائعة التي وصف بها الشابّي حدائق تونس الخضراء:

«أما ذهبتم أيّها السادة في يوم من أيّام الربيع الحالمة إلى بعض ضواحي المدينة (2)، حيث البريّة المهتزّة الناضرة، والغاب المونق الجميل؟ أما رأيتم ذلك البلبل الأنيق المتنقّل بين الغصون المورقة يترنّم بأغاريده الرقيقة الشجية؟ أما أبصرتم تلك القبّرة الرشيقة المتخطّرة بين مخاوف الأشجار، وحول مسارب الحقول، تتغنّى بتلك الأناشيد العذبة الطاهرة؟ أما شاهدتم في ضحوة النهار تلك الفراشة الجميلة، ترفرف حول الأعشاب البليلة وتلك النحلة الهازجة تحوّم بين الزهور والسكرى بأنوار النهار؟ أما ساقطت إليكم ذات يوم نسمات المساء الوادعة، ذلك الصوت الفضيّ الجميل المتجاوب في ظلام الغاب؟

«ثم أما أحسستم إذ ذاك، وأنتم بين أحضان الطبيعة، بذلك الشعور القويّ الغامض الثمل يستحوذ على مشاعركم، ويستولي على نفوسكم، فيجعلها أدنى إلى الخلود منها إلى هذا العالم الفاني؟».

---

(1) انظر، بآخر الكتاب (نقد الأستاذ التليسي) وردّي عليه بمجلة الندوة التونسية س4، ع6، ص19.

(2) يعني مدينة تونس العاصمة.

«ستقولون : بلى ولكن أيّ شيء هو هذا الذي حرّك في نفس البلبل حبّ النشيد، فانطلق يغنّي بين الغصون المزهرة، وداعب قلب القبّرة الصغير، فاندفعت تتغرّد راقصة بين الحقول، وأثار الفراش، فرفرف بين الشقيق والأقحوان، وأهاج النحلة فانطلقت تدمدم فوق أعشاب الربيع باحثة عن رحيق الورود، وأيقظ في أعماقكم ذلك الإحساس المبهم المبهج اللذيذ؟. أيّ شيء يا ترى هذه القوّة الساحرة التي تسكن كلّ شيء، وتبعث بكلّ شيء؟. إنّها هذا الروح الإلهيّ النبيل الذي تبصرونه في السماء والماء والنور والفضاء، وفي الوردة الناضرة والنسمة الطائرة، وفي حلّة الموج، ووميض النجوم.

إنّه الجمال الخالد المعبود الذي أحسّ به أهل بابل، فعبدوه في(عشتروت) وشعر به اليونان، فقدّسوه في (أفروديت) واستفزّ قلوب الرومان، فمجّدوه في (فنيس) وأقامت له الإنسانية كلّها معابد المجد في أعماق القلوب. فالجمال هو الذي نبّه الطائر فغرّد، وأيقظ الفراش فحوّم، واستخفّ النحلة فطافت بين الرياض، واتّخذ من أنفسكم هيكلا شعريا تعبدونه فيه، وأنتم لا تشعرون».

«والجمال هو الذي أنطق شعراء الوجود بتلك الأناشيد الخالدة المتغنّية بجلال الكون ومجد الحياة».

«والجمال هو الذي مهّد للإنسانية هذا السبيل الذي تضرب فيه، واستثار أفكار الجبابرة من مراقد النسيان. ولولا هذا الجمال المنبثّ في مظاهر الكون وطواياه، لاتّخذت الإنسانيّة سبيلا آخر غير هذا الذي تعرفونه، ولحرم العالم من ثمار خالدة، أنتجتها العقول»...

«وبعد، فما الذي أريد قوله من هذا الكلام؟ أريد أن أقول: إنّ مثل هذا الجمال الطبيعيّ الذي يستفزّ كوامن الحسّ، ويهزّ أدقّ أعلاق الشعور، والذي عرفتم أثره في نفوسكم، كلّما خلوتم إلى أحلامكم بين أحضان الطبيعة. أقول هذا الجمال الطبيعيّ هو القسطاس العادل الذي ينبغي أن توزن فيه نفسيّات الأمم وشاعريّات الشعوب، ليعلم ما هي عليه من قوة وضعف، ومن صحّة أو فساد.»(١)

إن من يستمع لهذه النغمات العذبة، والصور الحسان التي وصف بها الشابّي مشهدا واحدا من مشاهد الجمال في وطنه وصفا شعريّا أخّاذا، ليدرك معي أنّ جمال هذا الوطن أحقّ بالتضحية وأجدر بالغناء من جمال العذارى وقلوب الحسان!

وأيّ نفس متيقّظة الحسّ تسمع، أو تقرأ مثل هذا الحديث الوصفيّ الجميل، ثمّ لا تندفع، أو تحاول رؤية هذا الجمال والتمتّع بمحاسنه ومزاياه، والعيش بين خرير مياهه، وحفيف أغصانه، ومعانقة الطبيعة بين أحضانه، لتعلم أيّ خير حوى وأيّ سحر تزيّن، ولتدرك بالتالي أنّ حبّ البلاد، والوجد بجمالها لا ينبت في النفس بالسماع والقراءة، ولا يعشقه المواطنون بالآذان والخيال، كما يدّعي ذلك المغرمون بالعذارى، والمتيّمون بالحسان. ولن يكون لادّعاء بشار هنا إلاّ الهزيمة والاندحار (2)

إنّ حبّ الوطن إنّما يكون في النفوس الحسّاسة الشاعرة،

---

(١) (أبو القاسم الشابّي: الخيال الشعري عند العرب) ص29-31 ط أولى.

(2) إشارة إلى قول بشار: والأذن تعشق قبل العين أحيانا، وهو معذور في هذا لأنه كان ضريرا لم يعرف نعمة البصر وأثرها في حياة الإنسان وتفكيره وعاطفته.

وإنّما يقوى في بعض النفوس، ويضعف في أخرى، لقوّة الإحساس في الأولى، وخموده في الثانية. ولن يقوى في نفس إنسانية ما لم يغذّ على الدوام، بما يشبع جوع النفس، ويروي ظمأ الإحساس. وفي مشاهد الوطن المختلفة، ومظاهر الجمال الكثيرة التي منحتها الطبيعة لوطننا، في كلّ جزء منه، وعلى كلّ شبر فيه، خير غذاء تستمدّ منه النفوس حياة غرامها بالوطن، وتشبع به جوع إحساسها بجماله.

والشابّي بقصائده الرائعة في جمال الوطن، وطبيعته الساحرة، إنما يحبّب إلينا هذا الجمال، ويغرينا به، ومن ثمّ يبدأ تعلّقنا به، وسعينا إليه، وكفاحنا في سبيله، وهل يحتاج الوطن في حبّنا له إلى غير هذا، أو أكثر منه؟

وفي قصيدة (أغاني الرعاة) قطعة حية من فؤاد الطبيعة، وصورة متحرّكة من مشاهدها الخلاّبة(١) ، وهي أعلى وأعمق قصيدة تصف الرعاة وحياتهم، والمراعي وجمالها في شعرنا العربيّ كلّه :

أقبل الصبح يغنّي للحياة النّاعسة
والرّبى تحلم في ظلّ الغصون المائسة
والصّبا ترقص أوراق الزّهور اليابسه
وتهادى النّور في تلك الفجاج الدامسة

---

١ نظم الشابي هذه القصيدة وهو يقضي الصيف للاستشفاء (عام 1932) بمصيف (عين دراهم) الرائع الطبيعة، شمال غرب تونس.

***

أقبل الصبح جميلا يملأ الأفق بهاه
فتمطّى الزهر والطير، وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحيّ، وغنّى للحياه!
فأفيقي يا خرافي، واهرعي لي يا شياه

***

واتبعيني يا شياهي بين أسراب الطيور
واملئي الوادي ثغاء ومراغا وحبورْ
واسمعي همسَ السواقي، وانشقي عطرَ الزهورْ
وانظري الوادي يغشّيه الضبابُ المستنيرْ

***

وإذا جئنا إلى الغاب، وغطّانا الشجرْ
فاقطفي ما شئتِ من عشب وزهر وثمرْ
أرضعتْهُ الشمس بالضوءِ، وغذّاه القمرْ
وارتوى من قطرات الطلّ في وقت السحر

***

لكِ في الغابات مرعايَ ومسعايَ الجميلْ
وليَ الإنشاد والعزفُ إلى وقت الأصيلْ
فإذا طالتْ ظلالُ الكلأ الغضِّ الضئيلْ
فهلمّي نرجعِ المسعى إلى الحيِّ النبيل

ويتذكّر الشاعر طفولته الأولى بين المروج الخضراء والوادي المستنير، وتطوف بخياله صورها الجميلة وذكرياتها الحلوة، فيرى فيها (الجنّة الضائعة):

كم من عهود عذبة في عدوة الوادي النضير
فضيّة الأسحار مذهبة الأصائل والبكور
كانت أرقّ من الزهور ومن أغاريد الطيور

وألـــذّ من ســـحر الصّبا في بســـمـة الطـفل الغريـر
قضّيـــتـها ومـــعي الحبـيـبة، لا رقيـــب ولا نـذيـر
إلاّ الطـــفولة حولـــنـا، تلـــهو مـــع الحبّ الصغيـر
أيـــام كانـــت للحيـــاة حـــلاوة الـــروض المـطير
وطهـــارة المـــوج الجـمـيل، وسحـر شاطئه المنـير
ووداعـــة العـصـفور بـيـن جـداول المـاء النمير
أيـــام لـــم نـعـرف مـــن الـدنيا سوى مـرح السرور
وتتبـــّع النحـل الأنـيـق، وقـطـف تـيجان الزهـور
وتسلـــّق الجبـــل المكـلّل بالصنـوبر والصـــخـــور
ويـــنـــاء أكـواخ الطفـولة تحـت أعشـاش الطيـــور
نبـني فتهـدمـها الريـاح فـلا نضـجّ ولا نـثـــور
ونـعـود نضـحك للمـروج وللـزنابق والغـديـــر
ونخـاطب الأصـداء، وهـــي تـرفّ في الوادي المـنـير
ونعـيد أغـنية السـواقي، وهـي تلـغو بالخـريـــر
ونـظلّ نـركض خـلف أسـراب الـفراش المستطير
لا نسـأم اللّـهو الجـميل، وليـس يـدركنا الفـتـــور
فكأنـّنا نمشـي بأقـدام مجـنّـحة تـطيـــر
أيّام كـنّا لـبّ هـذا الكـون، والبـاقي قشـــور

ويحنّ للطبيعة حنين العابد إلى ربّه، والطفل إلى أمّه، فيرى أنّه كفنّان، لم يخلق ليعيش بين الناس، وإنّما بين أحضان الطبيعة، وللطبيعة دائما، (فكرة الفنّان) :

عـش بالشعور، وللشعور، فإنّما دنيـاك كون عواطف وشـعور
واجعل شعورك في الطبيعة قائدا فهو الخبير بتيهـها المسـحور
وافتح فـؤادك للوجـود وخلّـه لليمّ، للأمـواج للـديجـور
للثـلج تنـثره الزوابع، للأسـى للـهول، لـلآلام، للمقـدور
واتركه يقتحم العواصف هائما في أفـقها المتلبّد المقـرور
ويخوض أحشاء الوجود مقامرا في ليـلها المـتهيّب المحـذور
حتى تعانقه الحياة، ويرتـوي من ثغرها المـتأجّج المسجور
فتعـيش في الدنيا بقلب زاخـر يقـظ المشاعـر، حالم مسحور
في نشـوة صوفـيّة قدسيّـة هـي روح هذا العـالم المنظور

ويرى حبيبته، فلا يرى فيها غير قطعة حيّة من فؤاد الطبيعة تزخر بالشباب وبالحياة، (أراك) :

أراك، فتحلو لديّ الحياة ... ويملأ نفسي صباح الأمل
وتنمو بصدري ورود عذاب ... وتحنو على قلبي المشتعل
ويفتنني فيك فيض الحياة ... وذاك الشباب الوديع الثّمل
ويفتنني سحر تلك الشفاه ... ترفرف من حولهنّ القبل
فأعبد فيك جمال السّماء ... ورقّة ورد الربيع الخضل
وطهر الثلوج، وسحر المروج ... موشّحة بشعاع الطفل

***

أراك، فتخفق أعصاب قلبي ... وتهتزّ مثل اهتزاز الوتر
ويجري عليها الهوى في حنوّ ... أنامل لُدنًا كرطب الزهر
فتخطو أناشيد قلبي سكرى ... تغرّد تحت ظلال القمر
وتملكني نشوة لا تحدّ ... كأنّي أصبحت فوق البشر
أودّ بروحي عناق الوجود ... بما فيه من أنفس أو شجر
وليل يفرّ، وفجر يكرّ ... وغيم يوشّي رداء السحر

وتملأ السعادة قلبه والفرحة عينيه، لأنّه يحيا مع من يحبّ حياة كلّها أفراح وألحان، ومرح وسرور، فلا يجد صورة أقرب أو أقوى، ولا أصدق أو أحبّ إلى نفسه من صور الطبيعة، فيستمدّ منها تشبيهاته الرائعة :

قد سكرنا بحبّنا، واكتفينا
يا مدير الكؤوس فاصرف كؤوسك
واسكب الخمر للعصافير والنّحـ
ـل وخلّ الثرى يضمّ عروسك

****

ما لنا والكؤوس نطلب منها
نشوة، والغرام سحر وسكر؟!
خلّنا منك، فالربيع لنا سا
قٍ وهذا الفضاءُ كأس وخمر!!

****

نحن نحيا كالطير في الأفق الـ
ـساجي وكالنحل فوق غضّ الزهور
لا نرى غير فتنة العالم الحيّ
وأحلام قلبها المسحور
****

نحن مثل الربيع نمشي على أر
ضٍ من الزهر والروى والخيال
فوقها يرقص الغرام ويلهو
ويغنّي في نشوة ودلال
***

نحن نحيا في جنّة من جنان السّحـ
ـر في عالم بعيد... بعيد
نحن في عيشنا المورّد نتلو
سور الحبّ للشباب السعيد!

وينادي شعبه للنهوض، ويهيب به أن يحطّم الأصنام، ويثور على واقعه الخانع الذليل، فلا يستجيب له، ولا يعيره اهتماما، فيغضب ويثور، ويقرّر أن ينفي نفسه نفيا اختياريّا، ولكن إلى أين؟:

أنا ذاهب إلى الغاب يا شعـ ـبي لأقضي الحياة وحدي بيأس
ها أنا ذاهب إلى الغاب علّي في صميم الغابات أدفن نفسي
فهي تدري معنى الحياة، وتدري أن مجد النفوس يقظة حسّ

ويحشد الشابّي جميع إمكاناته الشعريّة، وكافة أحاسيسه الوطنية، وكلّ ما وهبه الله من نبوغ عبقريّة، ليعصر منها قطعة خالدة، هي فلذة حيّة من فؤاد الشاعر، وصورة رائعة لإرادة الحياة التي يريدها لشعبه، ويتنبّأ له بها، ويدعوه إليها في حرارة دافقة وإخلاص عميق، معطيا بذلك أروع الأمثال للبطولة الأدبيّة والإحساس الوطنيّ الخالق. ولكنّه مع ذلك لا يجد أكمل من الطبيعة، ولا أجمل منها فينتزع من صميمها أمثاله، ويحكي على لسانها قصّته، بل قصة

الحياة منذ عرفتِ الحياةُ الحياةَ. وكأنه يناشد شعبه، ويهتف به كما فعل أكثر من مرة :

ألا انهض وسر في سبيل الحياة
فمن نام لم تنتظره الحياة

ويبدو أنّه أحسّ بأنّ عليه أن يعرّفنا بمعنى الحياة نفسها، بحقيقتها السرمدية وسرّها الخالد. فما اختار غير فلسفة (نيتشه) ليعرضها علينا في صور طبيعيّة متحرّكة، وبتشبيهات فنيّة رائعة، فلا نملك أمام كلّ هذه الحشود الجمالية، والآيات العبقرية، إلاّ أن نهتف بعبارات الإجلال والتقدير لهذه الشاعريّة المخيفة، كما سمّاها صديقنا الدكتور علي سعد(١)

وقبل أن نستعرض هذه القصّة الفذّة، قصة الحياة المتجدّدة نريد أن نتعرّف إلى معنى الحياة عند الشابّي.

عرّف الشابّي الحياة، الحياة الطامحة المكافحة، التي تنهض بالإنسان، وتدفعه دائما إلى الأمام، الحياة الجديرة بأن نحياها، ونناضل من أجلها، هذه الحياة :

فهي تدري معنى الحياة وتدري
أنّ مجد النفوس يقظة حسّ

ولم يشغل الشابّي في حياته، وفي أدبه، شيء كما شغله هذا المعنى العميق الفائق : (يقظة الإحساس) الذي اكتشفه وافتتن به، ورأى فيه سرّ كفاح الشعوب وسرّ تقدّمها، ومقياس انهيارها وصعودها من جديد، بل وسرّ نبوغ الشعراء، وعبقريّة الفنّانين. فالشاعر أو الفنّان الذي عدم يقظة الإحساس، ليس بشاعر خالق ولا فنّان مبدع. وكذلك

---

(١) مجلة «الأديب» اللبنانيّة، عدد يناير 1953

الأمّة إذا ماتت فيها يقظة الإحساس فإنّها تفقد شخصيتها المبدعة، ووجودها الحرّ وكيانها المستقلّ، وإنتاجها النافع. أمّا إذا كانت متيقّظة الإحساس مشبوبة الروح، فإنّها مهما عدمت من ضروب الحرية، ولقيت من صعاب الدهر والأعداء، لابدّ أن تحيا، وأن ترتفع، ولا بدّ أن تفرض وجودها المستقلّ وشخصيتها المتميّزة، وكيانها الحرّ. وقد حدّثنا الشابّي عن (يقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة) فقال: «...تسمع إلى هذا الشاعر فإذا أنت أمام روح إلهيّ نبيل، يسمو بنفسك إلى آفاق الحقّ والفنّ والجمال، ويجعل منك كتلة من شعور قدسيّ مشبوب. وتسمع إلى حديث ساذج بسيط، لا يميّزه عن أحاديث الناس العاديّة إلاّ رنّة النغم وتواتر القوافي وجمال التعبير، وتسمع إلى غيره فتخال أنّك تجلد بالسياط، أو تساق إلى الموت على وجهك».

«وتصغي لهذا المنشد أو الموسيقار، فيستفزّ نفسك، ويُثير وجدانك، ويهزّ عواطف قلبك، ويذكي خيالك إلى أقصى مداه، حتى تكاد تستحيل شعلة متوهّجة من خيال وذكريات وأحلام. وتصغي لسواه فلا تشعر، وأنت تصغي إليه إلاّ بحلاوة في الصوت وجمال في المقاطع، ورقّة في النشيد، وشيء من المتعة يخفّف عن النفس أعباء العيش وشقاءه. وتصغي لغير هذين، فيكاد التثاؤب ينيمك، والضجر يقضي عليك. وترى صورة لهذا الرسّام أو تمثالا لذلك النحات، فتشعر بلذة روحيّة سامية، تعرج بك إلى سماء الإلهام ومعارج الوحي البعيدة، وترى لغير هذين، فلا تحسّ في نفسك بغير الإعجاب البسيط الفاتر، وترى لآخرين فتظلّ نفسك هادئة ساكنة، كأنك رأيت شيئا، أو

تشمئز وتنفر، وتفرّ بذوقك فرارا».

«وهذا شعب من شعوب الأرض، يجدّ ويكدح، وينتج ويخصب أينع الثمار وأحلاها، فإذا له حياته الأدبيّة الناضجة، وحياته العلميّة الراقية وحياته العادية المهذّبة، ومشاعره الطامحة إلى ما هو أجلّ من ذلك وأسمى، إلى المثل الأعلى المحجّب في ظلام المجهول. وهذا شعب آخر منصرف إلى التبطّل والفراغ، مخلد إلى الكسل والخمول، لا يعمل ولا ينتج، ولايجود على الإنسانيّة بخير. ليس له فنّ ولا علم، ولا أدب، ولا طموح، بل ولا حياة... أيضا، إلاّ كما تحيا ماشية الحقل وآبدة الجبل»...

«فما هو السرّ يا ترى في هذا التفاوت الواضح بين هؤلاء؟ ستقول: الحرية. فكلما كان الفنّان حرّا في فنّه، كلّما اكتشف آفاقا جديدة من السحر والجمال. وبذلك يسمو على غيره ممّن لا يعطي لفنّه حريّة الحياة».

«وهذا حسن، لولا أنّه، إن صحّ صرفه إلى الفنّان، فإنّه لا يصحّ صرفه إلى الشعوب، لأنّ كثيرا ما تجد الشعب حيّا منتجا تزخز في عروقه دماء الحياة وعزمها، ومع ذلك لا يملك من الحرية ما يتكافأ مع حيويّته ونتاجه. وهو فوق ذلك تعليل للشيء بغير علّته. وعندي أنّ السبب الحقيقي لهذا التفاوت هو: (يقظة الإحساس) لا الحرية. لأنّ حرية الفنّان في فنه، إنّما هي آثار هاته اليقظة الروحيّة، وثمرة من ثمارها. فإذا تيقّظ الإحساس في قلب الشاعر والفنان بتعبير أشمل - كان له بالرغم عنه - استقلاله الذاتيّ الذي يشعر معه بأنّه قوة حيّة منتجة، من المستحيل أن تندمج في سواها، وأن لا تشقّ لنفسها سبيلا بكرا للمجد والحياة. وكانت له كرامة تترفّع عن أن تذوب في غيرها، أو تنحطّ

إلى درك التقليد. وبذلك تصبح نفسه شعلة حيّة نامية، تتوهّج في قلب الحياة، وطائرا سماويّا يتغنّى بأفكار وأحلام البشر.

وإذا تيقظ الإحساس في روح الشعب تحرّكت في صدره - رغم كلّ شيء- تلك الأشواق الطامحة، والرغبات الجامحة التي كانت مكبّلة نائمة في ليل الدهور، وإذ ذاك يشعر بنفسه وإذا قلنا (يشعر بنفسه) فقد قلنا كل شيء. ويعلم أنّه عضو في هاته الجامعة البشريّة، عليه واجب السعي والعمل في سبيل كمال الإنسانية المنشود، في سبيل مثل الحياة العليا، في سبيل الحقّ والقوة والجمال».

«... وهذه الأمة العربية كانت بالأمس رائدة العالم ورسول المدنية والنور، حين كانت روحها مستيقظة ناهضة، وإحساسها مضطربا مشبوبا. ثم أمست في آخر القافلة الإنسانية نائمة تلوك أحلام الماضي، لما تبلّد إحساسها، وفقدت شعورها بنفسها وبالحياة ثم ها هي اليوم تحاول النهوض واليقظة ثانية، لأنّ روحها قد أخذت تستيقظ من جديد.

«.. ومن هنا تفهم معي أنّ يقظة الإحساس هي روح الحياة المنتجة الولود التي تصقل العبقرية، وتؤجّج نيران النبوغ»(1).

وهكذا ظلّ الشابّي يردّد هذا السرّ، سرّ الحياة العميق، ويدعو شعبه إليه نافخا فيه من روحه، مشعلا فيه ثورة جامحة من يقظة إحساسه العارم، وبركان شعوره الزاخر،

---

(1) من مقال للشابي عن يقظة الإحساس بين الفرد والجماعة.

حتى انتهى إلى القمّة، وعزف نشيده الخالد (إرادة الحياة) معلنا : إن الحياة إرادة وطموح، وإنّ هذين يقظة إحساس مشبوب، وثورة روحيّة مستنيرة، لا يصمد أمامها جمود أو رجعيّة، ولا استعمار أو اضطهاد ولا قضاء أو قدر :

إذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بدّ أن يستجيب القدر!!
ولا بدّ للّيل أن ينجلي ... ولا بدّ للقيد أن ينكسر!!
ومن لم يعانقه شوق الحاة ... تبخّر في جوّها واندثر
كذلك قالت لي الكائنات ... وحدّثني روحها المستتر

***

ودمدمت الريح بين الفجاج ... وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمحت إلى غاية ... لبست المنى، وخلعت الحذ ر
ولم أتخوّف وعور الشعاب ... ولا كبّة اللّهب المستعر
ومن لا يحبّ صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر!
فعجّت بقلبي دماء الشباب ... وضجّت بصدري رياح أخر
وأطرقت أصغي لعزف الرياح ... وقصف الرعود، ووقع المطر
وقالت لي الأرض لمّا تساءلت ... يا أمّ هل تكرهين البشر!؟
«أبارك في الناس أهل الطموح ... ومن يستلذّ ركوب الخطر!
وألعن من لا يماشي الزمان ... ويقنع بالعيش عيش الحجر!
هو الكون حيّ يحبّ الحياة ... ويحتقر الميّت المندثر!
فلا الأفق يحضن ميت الطيور ... ولا النحل يلثم ميت الزهر!
ولولا أمومة قلبي الرؤوم ... لفرّت عن الميّت تلك الحفر!
فويل لمن لم تشقه الحياة ... من لعنة العدم المنتصر»!

ثم نعود إلى قصته الفذّة، قصة الحياة التي تختفي، ثم تنمو من جديد، فتظلّ خالدة الشوق دائمة التجدّد، كالبذور الغافية تحت الثرى، الطامحة للنمو والحياة والحبّ، والحالمة بالماء والنور والهواء :

وفي ليلة من ليالي الخريف ... مثقلة بالأسى والضجر
سكرت بها من ضياء النجوم ... وغنّيت للنهر حتى سكر!!
سألت الدجى : هل تعيد الحياة ... لمن أذبلته ربيع العمر؟
فلم يتكلّم فؤاد الظلام ... ولم تترنّم عذارى السحر
وقال لي الغاب في رقة ... محبّبة مثل خفق الوتر :
«يجيء الشتاء شتاء الضباب ... شتاء الثلوج شتاء المطر
فينطفئ السحر، سحر الغصون ... وسحر الثمار، وسحر الزهر
وسحر السماء القويّ البديع ... وسحر المروج الشهيّ العطر
وتهوي الغصون وأوراقها ... وأزهار عهد جميل نضر
وتلهو بها الريح في كلّ واد ... ويدفنها السيل أنّى عبر
ويفنى الجميع كحلم بديع ... تألّق في مهجة واندثر
وتبقى البذور التي حملت ... ذخيرة عمر جميل غبر
وذكرى فصول، ورؤيا غيوم ... وأشباح دنيا تلاشت زمر
معانقة وهي تحت الثلوج ... وتحت الضباب وتحت المدر
لطيف الحياة الذي لا يملّ ... وقلب الربيع الجميل العطر
وحالمة بأغاني الطيور ... وعطر الزهور، وطعم الثمر
ويمشي الزمان، فتنمو صروف ... وتذوي صروف، وتحيا أخر
وتصبح أحلامها يقظة ... موشّحة برداء السّحر
تسائل : أين ضباب الصباح ... وسحر المساء، وضوء القمر
ظمئت إلى النور فوق الغصون ... ظمئت إلى الظلّ تحت الشجر
ظمئت الى النبع بين المروج ... يغنّي ويرقص فوق الزهر
ظمئت إلى الكون.. أين الوجود ... وأين أرى العالم المنتظر؟!
هو النور بين رحاب الفضاء ... وفي عالم اليقظات الكبر!
وما هو إلاّ كخفق الجنا ... ح حتى نما شوقها وانتصر!
فصعدّت الأرض عن صدرها ... وأبصرت النور عذب الصور!
وجاء الربيع بأطيافه ... وأحلامه وصباه النضر
وقبّلها قبلة في الشفاه ... تعيد الشباب إلى ما غبر

وقال لـها قد منحت الحيـاة ... وخلّدت في نسلك المدّخـر
ومـن ناجت النورَ أحلامُـه ... يباركه النور أنّى ظهـر!
إليك الفضاء، إليك الضيـاء ... إليك الثراء الحالم المزدهـر!
فميـدي كما شئت فوق المروج ... بحلو الثّمار، وغضّ الزهـر
وناجي النسيم وناجي الغيوم ... وناجي النجوم، وناجي القمـر
ولا تسأمـي نغمات الحيـاة ... ولا فتنة العالم المعتبـر»!!

ثم ينتهي إلى الغاية القصوى التي ارتفع إليها بإحساسه اليقظ الفوّار، وبعبقريته المبدعة الباهرة، فيعلن أنّ الطموح حبيب الحياة وروح الظفر، وأنّ النفوس - نفوس شعبه وكلّ شعب في الأرض - سيستجيب لها القدر إذا هي استيقظت من نومها ووعت وجودها، وأدركت سرّ الحياة وسرّ النهوض الكامن في شوقها وطموحها ويقظة إحساسها:

وشفّ الدجى عن جمال عميـق ... قـويّ الغـواية حلو الصـور
ومُدّ على الكـون سـحر غـريب ... يصـرّفه ساحـر مقتـدر
وضـاءت شمـوع نجوم السماء ... وضـاع البخـور، بخـور الزهـر
ورفـرف روح غريـب الجمال ... بأجنـحة مـن ضيـاء القمـر
ورنّ نشيد الحياة المقـدّ ... س في هـيكل حـالم قـد سحـر
وأعـلن في الكـون أنّ الطّمـوح ... حبيب الحـياة وروح الظـفـر!!
إذا طمـحت للحـياة النـفـوس ... فـلا بدّ أن يسـتجيب القـدر!!

وبهذه القصيدة الخالدة (إرادة الحياة) المفعمة بالقوّة والأمل والمليئة بالتفاؤل والرجاء، كتب الشابّي اسمه وتاريخه بأحرف من نور، وفي هالة من الغار والمجد بين شعراء العالم الأفذاذ، وأدبائه الكبار الخالدين.

وسواء أكان التقاء الشابّي في فكرة الحياة المتجدّدة مع الفيلسوف الألمانيّ (نيتشه)مجرّد صدفة، أو نتيجة

لترسّبات ثقافيّة في ذهنه الخاطف الجبّار، فإنّها ستظلّ من أعظم الدلالات العبقرية على بطولة الشابّي الوطنيّة والأدبية (1). وستبقى خير نشيد عزفه شاعر عربي، فكان البذرة القويّة الصالحة التي نبتت في قلب شعبه الخانع الذليل، فحوّلته إلى الطموح والكفاح والثورة، وبعثت فيه اليقظة والوعي والنهضة، ثم جعلته يصنع الحياة بيديه، ويبني المجد بنفسه، ويسمو كالأشواق والنسور إلى أعلى القمم.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

(1) انظر تعليق الدكتور علي سعد حول فكرة (إرادة الحياة) بمجلة الأديب عدد يناير 1953 أو في الطبعة الثانية من كتاب (الشابي حياته وشعره) للمؤلف.

ملاحق

حول (كفاح الشابي)

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

كتب الأديب الليبيّ الأستاذ خليفة التليسي مقالا قيّما حول كتابي (كفاح الشابّي) (١).. وقد كان مقاله طريفا رائعا، قويا جليلا بأسلوبه وآرائه وتناسقه. وهي ميزات دائمة لإنتاجه الرصين.. ممّا يجعله بحقّ من أدباء الطليعة الرائدة في مغربنا العربيّ الكبير.

غير أنّ بعض ملاحظاته في هذا المقال، قد استوقفت نظري، فكتبت إليه حولها وكتب لي أيضا. وقد رأيت أن أضيف هذه المناقشة إلى هذا الكتاب في طبعته الثالثة هذه.

وحتى تكون جوانب القضيّة واضحة كلّها لدى القرّاء، سأثبت أولا ما كتبه الأستاذ خليفة عن الشابّي كاملا.. ثم أعقبه بما دار حوله من نقاش، أعتقد أنّه مثال يحتذى في الجدل الأدبيّ النظيف، وكيف ينبغي أن يكون خاليا من التهويش والسّباب والقذف... قال الصديق خليفة:

كفاح الشابّي

«هذا كتاب جديد عن الشابّي يقدّمه صديقنا الأديب التونسي المعروف الأستاذ أبو القاسم كرّو، وهو خير من يتصدّى لدراسة حياة هذا الشاعر الكبير. وقد سبق أن قدّم للمكتبة العربية كتابه عن الشابّي وشعره، فأدّى بذلك خدمة جليلة لموطنه وللأدب وللشاعر.

---

(١)عقب الطبعة الأولى. بيروت 1954.

وهذا الكتاب يأتي في حين الحاجة إليه، يأتي والعالم العربيّ يرقب نتائج ثورة إخواننا التونسيّين وصراعهم في سبيل سيادتهم واستقلالهم. يأتي ليصوّر لنا صورة من كفاح الشباب التونسي ممثلا في هذا الغرّيد، الذي طار قبل أوانه وما أكثر صور الكفاح في حياته، إنه كفاح ضدّ القوى الغاشمة التي اعتدت على وطنه، واستغلّت خيراته، وكفاح ضدّ الرجعية الخانقة التي استراحت إلى الجمود، وحاربت التطوّر ودعاته، وكفاح في سبيل تجديد مفهوم الشعر والأدب، ثم كفاحه ضدّ هذه الآلام المبيدة التي أحاطت بحياته، ومنها ذلك المرض الذي أودى به في ريّق العمر ونضارة الشباب، وتلك الغربة التي كان يحسّها في بيئة لم تفهم أغاني نفسه وأشواق قلبه، ولا شكّ في أنّ هذه الأعداء التي كان يحاربها ما تزال ماثلة أشباحها في الكيان العربيّ، ولقد قاومها ما استطاع، وحاربها ما وسعته المحاربة، ولكنّه مضى ولم يتغلّب عليها وإنّما أنشأ جيلا واعيا يفهم رسالته في الحياة ودعوته إلى اليقظة والتحرر، وها هو الفجر القدسيّ الذي تغنّى به قد بدأت طلائعه تزحف مبدّدة ظلام الرجعية والاستبداد. وآية العظمة في هذا الشاعر أنّه استطاع أن يبلغ صوت تونس، وأن يرفع ذكرها في الشرق، وإنّي لأعرف أناسا لم يهتمّوا بتونس ولم يتعلّقوا بها، إلاّ لأنّها موطن الشابّي ولعلّي منهم.

فلا عجب بعد ذلك إذا قرأنا قول الأستاذ المؤلف (إن تونس الخضراء لم تعرف في تاريخها الأدبيّ شاعرا يقف بحقّ بين الشعراء الكبار ويحتلّ مكانة سامية في عالم الخلود بعد شاعرها ابن هانئ إلاّ الشابّي) وهذا قول يؤكّده الواقع

الذي يشهد بأنّ الشاعر العظيم هو ذلك الذي يتعدّى حدود بلده، مخاطبا الإنسانية في آفاقها الواسعة، وما نعرف شاعرا تونسيّا استطاع أن يخاطبها كما خاطب أرواحنا هذا الشاعر، ويستعرض الأستاذ مراحل هذا الكفاح موضّحا مختلف الأطوار التي مرّ بها، والمحاربة السافرة التي اعترضت الشاعر وأنصاره، في دعوتهم إلى اليقظة والتحرّر، وفي عرضه لهذه الدعوات يكاد يصوّر لنا نفسه في ثورتها على الرجعية أكثر مما يصوّر ثورة الشابّي، أو الطاهر الحداد.

وقد أطال الوقوف عند هذا الثائر الأخير، وكان من الممكن أن يكتفي بالإشارة إليه ولكنّه من المؤمنين به، والمعجبين بحركته. وكثيرا ما حدّثني عن نيّته في إخراج كتاب عنه. وقد كنت أوثر أن يؤجّل هذا الفصل إلى ذلك الكتاب، لأنها وقفة كانت على حساب غيره من الشعراء والأعلام الذين اكتفى بذكر أسمائهم فقط، وعذره أن يتوجّه بها إلى القارئ التونسيّ قبل القارئ العربيّ.ووطنية الشابي لا تقف عند الدعوة إلى النهضة والتحرّر، وإنّما تذهب إلى أبعد من ذلك، إلى التغنّي بطبيعة الوطن وجماله. والفصل الذي يعقده الأستاذ للطبيعة في شعره من أمتع فصول الكتاب، وإن كنت لا أقرّ الأستاذ على أنّ الشابّي كان في شعره يتغنّى بالطبيعة التونسية، فلا نعرف له في شعره (مشهدا) من المشاهد التونسيّة وإنّما هي النزعة الرومانسية، وحنينها وهيامها بالطبيعة، ولا شيء غير ذلك.

وأحسب أنّ الطبيعة في شعره لا تدخل الوطنية إلاّ من بابها الضيّق. وفي الكتاب نظرات صائبة، وتصحيح

للشعر العربيّ وموقفه من الحياة واتّصاله به. وليت الأستاذ أطال الوقوف وتتبّع الظروف التي دفعت بالشعر العربي على أن يحدّد مفهومه، ويتّصل بكثير من الآراء عن تطوّر الأدب الغربيّ بعد النهضة الحديثة وعن المذاهب الشعرية التي نشأت بعد ذلك، ومكان الشاعر منها.

ونحن في حاجة عندما ندرس الشابّي إلى أن ندرك هذه التطوّرات التي لحقت الشعر العربيّ. والصراع الذي كان سائدا في الشعر العربيّ لم يكن في ثقافته نبتة تونسيّة فحسب، ولكنّ آراءه في التجديد ومفهوم الشعر إنّما جاءته من الشرق والمهاجر الأمريكية. ولست مع الأستاذ في رأيه في المتنبي، ويدهشني جدّا أن يحاسبه بعقليّة ناقد يعيش في القرن العشرين، ويطلب منه أن يحمل مفهوما للأمة والشعب كما نحمله نحن الآن.

وأحسب أنّه من غير المعقول أن نذكره في ذلك العصر (بالملايين من أفراد أمّته تأكل الحرمان، وتعيش عَلَىٰ الصبر والكبت والمسغبة الحزينة، وتتعزّى بأفيون الغيبيات القاتل) ويزيد عجبي عندما أقرأ هذه الفقرة (كان التطوّر الذي نفهمه اليوم، ونريده، بعيدا عن أفهام الشعراء وتفكيرهم ووعيهم في تلك العصور) ثم هل كان المتنبي وحده الذي تفرّد بصفة المدح الكاذب؟ لقد كانت تلك الصفة بدعة شائعة في أغلب العصور.

ولعلّ ممّا يشفع للمتنبّي العظيم نظراته في الحياة والأحياء، وبروز شخصيته، وتأثيره البعيد في من تلاه من الشعراء، ذلك التأثير الذي أهدى للعربية أحكم شعرائها وهو المعرّي.

والحقّ أنّ المؤلف الكريم قد وفّق في تصوير ناحية الكفاح من حياة الشاعر وربّما كانت هذه الناحية أبرز ما في حياته. وهل حياة الشابّي (إلاّ صورة من صور الكفاح الذي لا يلين، والمقاومة التي لا تفتر، والمحاربة التي لا تزول) (١) .

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

(١) نشر بجريدة (طرابلس الغرب) 1954.

حول الشابّي والمتنبّي

وفيما يلي مناقشتي لما أبداه من ملاحظات حول الشابّي ثم حول المتنبي :

أولا: الشابّي

1 إنّ الشابّي قبل أن يتأثّر بأي لون من ألوان الأدب، ولد وشبّ، وقضى سنوات من شبابه في بلاد الجريد، وهي بلاد جميلة ذات طبيعة عذراء تنمو وتزدهر مثلما تحرّكها يد الأيام. وعندي نصوص ووثائق كثيرة تثبت أنّ الشابّي كان يلوذ إلى هذه الطبيعة، بل يتنسّك فيها، ويقضي بين أحضانها شهورا طوالا لا يكاد يتّصل بغيرها حتى بأهله إلا لماما، ومع الليل في ساعات قلائل. ولعلّني أستطيع أن أرسل إليك مجموعة من الصور التي تمثّل الأمكنة التي كان ينفرد فيها الشابي. وقصيدة (الجنة الضائعة) ليستْ إلاّ وصفا لطفولته وذكرياته في هذه الطبيعة.

2 كذلك حكم الأطباء عليه في سنة 1931 أن يذهب إلى الجبال، وقد ذهب فعلا وعاش سنواته الأخيرة متنقّلا بين هذه الجبال ومصايفها الجميلة، وجميعها مكسوّة بالغابات ذات السنديان والصنوبر والزيتون وغيرها، بحيث لم يذكر في شعره لونا أو نوعا من المشاهد أو الأشجار أو الأطيار أو غيرها، هو ليس في بلاده أو لم يشاهده بعينه. وقد نظم أجمل قصائد الطبيعة خلال هذه الفترة، وقصيدته (أغاني الرعاة) مثلا نظمها بعد أن أقام في مصيف عين دراهم صيفا كاملا، وعين دراهم هذه

تعتبر قطعة من جمال سويسرا.
وهذا الصدق في التصوير والإحساس والتعبير أشرت إليه في فصل مستقلّ في كتابي الأول عن الشابّي، وكذلك أوضحت كيف أن الشابّي لا يصف الطبيعة عن طريق السماع أو الرواسب الذهنية مما يطالع، بل عن تأمّل وحياة حقيقية،وذلك في كتابي «كفاح الشابّي» صفحة 83.

3 إنّ الشابّي خلال السنوات العشرة التي قضاها في تونس (العاصمة) كان دائما، وأحيانا كلّ يوم، يقضي أكثر أوقاته في حدائق تونس، وبخاصّة في حديقة (البلفدير) التي هي بمثابة غابة كبيرة جدا، ولعلّكم شاهدتموها أثناء زيارتكم الأخيرة لتونس. كان لا يستعذب المطالعة الأدبية إلاّ بين أشجارها، وذكر لي شخصيا قريب له كان زميله خلال سنوات دراسته في الزيتونة: «إن الشابّي كان يذهب إلى حديقة البلفدير في وقت مبكر جدا، وأحيانا مع الفجر».

4 وأخيرا لا تنس أنّ تونس تسمى الخضراء، وليس ذلك جزافا، بل لما حبتها به يد الطبيعة من مشاهد - لا مشهدا واحدا - جميلة فاتنة.

وفي كتاب (الخيال الشعري عند العرب) عقد الشابّي فصلا خاصّا عن الشعر العربيّ والطبيعة، وانتقد فيه على الشعر العربيّ خلوه من مشاهد الطبيعة، ومن صور حيّة صادقة، يصفها الشاعر عن مشاهدة حقيقية وإحساس وانفعال تامّين، لا عن مجازات لفظية وخيال صناعيّ.

على أنّني لا أنكر أنّ الشابّي لا بدّ أنّه قد تأثر، كما تأثّر في جوانب أخرى، بما قرأه عن الطبيعة في المطالعات المختلفة وبخاصّة في الأدب المهجريّ وفي المترجمات

كـ(رفائيل) للزيّات. غير أن الطبيعة - ولا سيّما قصائده الخاصة بها - هي صورة حقيقيّة لما في بلاده، وإن تأثّرت في خيالها بشيء مما طالعه فإنّما يكون ذلك في ناحية الأسلوب وطريقة العرض، لا في صدق الإحساس وجمال الصور وألوان المشهد.

وإني لأسألك: لو أنّ الشابّي شبّ وعاش في أرض جدباء خالية من كلّ معنى من معاني الجمال، أو لون من ألوان الطبيعة، أكان يمكن فعلا أن يكون كما كان؟

ثانيا: المتنبّي

أما المتنبّي فإنّني لم أحاسبه بعقلية ناقد في القرن العشرين كما ذكرت. بل إنّني سجّلت الحقيقة المرّة التي صنعتها حياة المتنبي وأعماله أيضا.

وفي نفس الوقت ذكرت أنّنا لا نستطيع أن نطالب الأقدمين بما لم يكن معروفا عندهم، ولا ينتظر منهم أن يعرفوه، وذلك في ص13. ولكنّ هناك حدّا أدنى من الإحساس بالجماعة وبالبيئة التي يحيا فيها الشاعر، ينبغي أن لا نتسامح مع من يتهاون به أو يوليه ظهره، ليعطي وجهه وكلّ إمكاناته إلى أفراد يعدّون على أصابع الرجلين، ولا يستحقون أقلّ من أن يصفعهم المواطنون بالنعال، أو أن يشنقوا بالميادين العامّة.

والمتنبّي عاش عبدا للعبيد وخادما مغرورا يتظاهر بالكبرياء، والأنفة، ثم يمدّ يده لينال عطاء سيّده إليه. وعلى الرغم من أنّه قد قال أكثر مدائحه في سيف الدولة الذي يعتبر من الأبطال العرب، إلاّ أنّ المتنبّي في الواقع لم يعش ذكره عبر الأجيال، ولم يبق له هذا الصدى الكبير إلا

بأسلوبه، وبأسلوبه قبل كلّ شيء آخر، أمّا أفكاره فإنّها دون ذلك، لا سيّما من ناحية موضوعاتها وصلاحيتها لأن تعيش هذا العمر الطويل. وإنّني لأعجب بأبي فراس وأفضّله عنه، لما يتّسم به شعره من صدق في التعبير، وحرارة في الإحساس وهدوء في النغم، ورقّة في الشعور، وانسجام في الصور.

أما قولك إنّ المتنبّي لم يتفرّد وحده في صفة المدح فقول صحيح، ولكن من جانب واحد فقط، ذلك أنّ المتنبّي اتّخذ من المديح سلّما إلى المجد والعبقرية، وهو ما لم يفعله أشدّ المدّاحين قبله ولا بعده، وليست هذه خلّة حسنة كما قد يظنّ.

أمّا قولك، إنّ ممّا يشفع للمتنبّي : «نظراته في الحياة والأحياء وبروز شخصيّته وتأثيره البعيد في من تلاه من الشعراء، ذلك التأثير الذي أهدى للعربيّة أحكم شعرائها وهو المعرّي»، فأعترف بأنّه قد أذنب، ولكن يخفّف ذنبه حسب رأيك : نظراته إلخ...

غير أني أختلف معك في هذه النقطة أيضا، فالمتنبّي ترك فعلا نظرات للحياة وللأحياء، ولكنّها لم تكن نظرات بناء وارتفاع بالبشريّة، وبالحياة إلى أعلى وأفضل، بل كانت هدّامة بغيضة مفزعة، لا ترى في شيء خيرا أصيلا مطلقا، ولا تنتظر من الأنام سموّا أو ارتفاعا. وكيف ينتظر شيئا من ذلك من يقول :

وكلّ ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همّتي كشعرة في مفرقي

هذه كلمة شاملة موجزة حول المرحوم المتنبي، وعن الطبيعة في شعر الشابّي ولعلني لم أقنعك بقدر ما أقنعت نفسي مرة أخرى.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

وثائق

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الشـــابّي

خريطة تمثل أطوار حياة الشابي ، ونشأته ، متنقلاً برفقة ابيه في انحاء تونس وبيئاتها

• مسقط رأسه حيث ولد ١٩٠٩ ، ودفن ١٩٣٤ .

١ – ٧ تشير الارقام الى تتابع تنقل الشابي برفقة ابيه بين مختلف المدن التونسية (راجع مصل : والد الشاعر) .

□ حيث عاش مريضاً يصطاف بأمر الاطباء (راجع مرض الشاعر) .

▲ حيث اقام حوالي عشر سنوات للتعلم ، ثم عاد للعلاج ، ومات بها .

﴿ الحمد لله ﴾

دفتر شهادات

التلامذة

بالجامع الاعظم

اتصل به صاحبه في ٣ المحرم سنة ١٣٣٩ الى ١١ اكتوبر سنة ١٩٢٠ م
تسعة وثلاثين سنة ثلاثمائة وألف

١٠٠٨٩ ألف عشرة والف وتسعة وثمانين

طبع على نفقة السيد سليمان الحمار الكتبي بالسرايرية عدد ٣١

سنة ١٣٣٩

المطبعة التونسية . نهج سوق البلاط ٥٧ . تونس

الشـــابّي

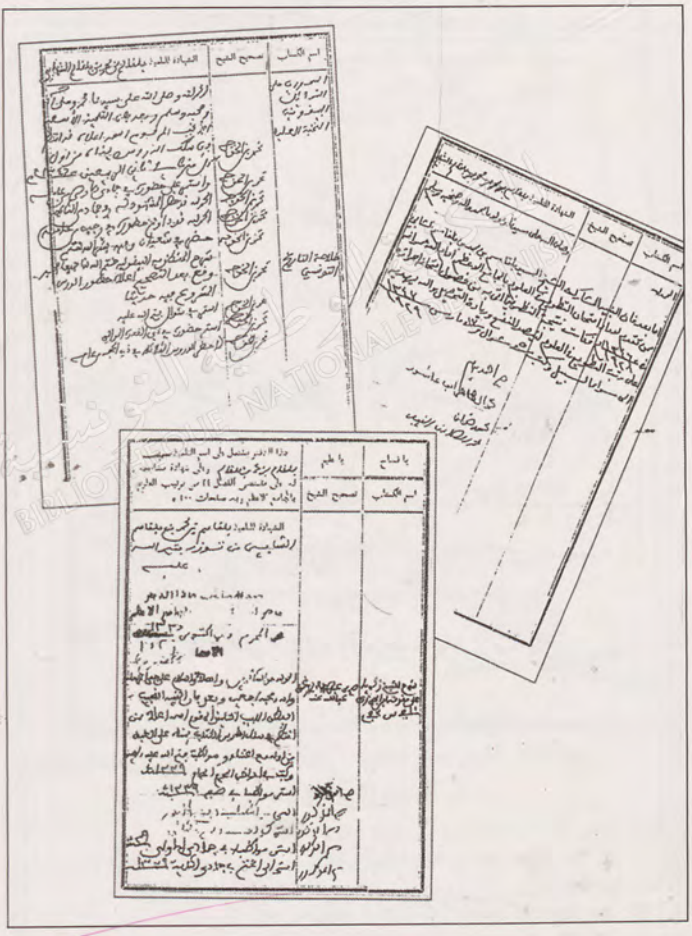

دفار الطالب الزيتوني أبو القاسم الشابي

الشـــابّي

«الشابّي» المُتفرّد/المُتعدد من خلال آثاره

الشـــابّي

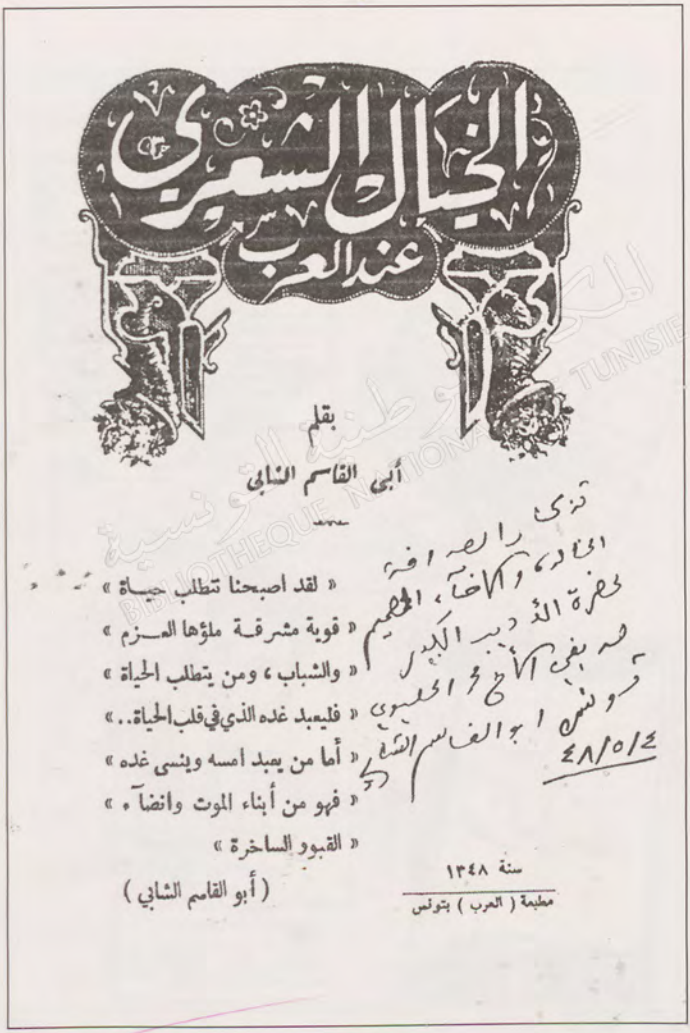

كتاب «الخيال الشعري عند العرب» في
طبعته الأولى بتونس سنة 1929

ذكرى الشابي

صورة مصغرة من حفلة تابين فقيد الادب
التونسي المرحوم «ابو القاسم الشابي»
التي اقامتها جمعية الشبيبة المدرسية التونسية

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE
المكتبة الوطنية التونسية

نشرها
الطيب العنابي
خريج جامع الزيتونة الاعظم
ومدرسة ابن خلدون
و
كاتب الشبيبة المدرسية التونسية

تونس
مطبعة الاتحاد
١٩٣٤

١«٥٠

١«٥٠

الشـــابّي

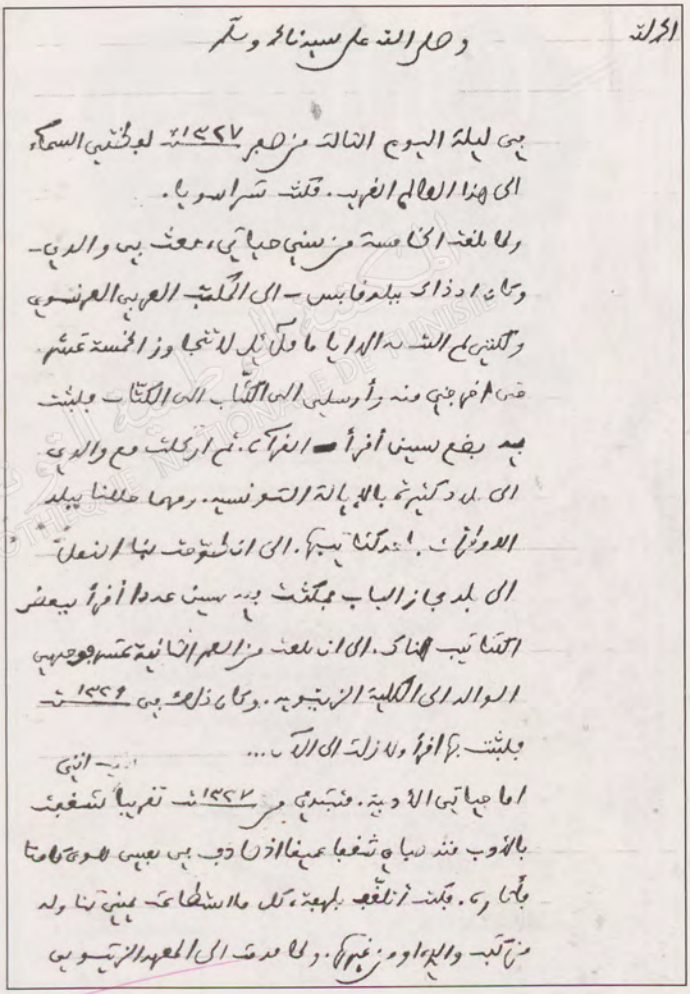

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

في ليلة اليوم الثالث من شهر ١٣٢٧هـ لبّى نداء السماء الى هذا العالم الغريب. فكنت شراصوبا.

ولما بلغت الخامسة من سني حياتي، بعث بي والدي - وكان أو ذاك ببلد قابس - الى الكتّاب العربي الفرنسوي وكنت في الثامنة الى ما قبل الثلاثين والخمسة عشر من الشهر حتى أرسلني الى الكتّاب الى الكتّاب فبلغت به بضع سنين أقرأ القرآن. ثم ارتحلت مع والدي الى الدكنرة بالجهة التونسية. ومهما علقنا ببلد الأوراق. أعدكنا بها. الى ان شرعت بها النعل الى بلد جازالباب فمكثت به سنين عددا أقرأ ببعض الكتائب هناك. الى ان بلغت من العمر ثمانية عشر فوجهني الوالد الى الكلية الزيتونية. وبعد ذلك بنحو ١٣٢٩هـ فبلغت بها أقرأ ولا زلت الى الآن...

أما حياتي الأدبية. فتبدي من ١٣٢٢هـ تقريبا لشغفت بالأدب منذ صباي شغفا عميقا اذ دب بي بعض الموهبة فأخذت أنظم. فكنت أتلقف بلهفة، كل ما استطاعت يميني تناوله من كتب والجرائد ومن غيرها. ولما عدت الى المعهد الزيتوني

ترجمته بخطّه

الشـــابّي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلّم

في ليلة اليوم الثالث من صفر سنة 1327 لفظتني السماء
إلى هذا العالم الغريب فكنت بشرًا سويًا
ولما بلغت الخامسة من سني حياتي، بعث بي والدي
– وكان إذ ذاك ببلدة قابس – إلى المكتب العربي الفرنسوي
ولكنني لم ألبث به إلا أيامًا قلائل لا تتجاوز الخمسة عشر
حتى أخرجني منه وأرسلني إلى الكتاب فلبثت
به بضع سنين أقرأ القرآن ثم ارتحلت مع والدي
إلى بلاد كثيرة بالايالة التونسية ومهما حللنا ببلد
إلا وقرأت بأحد كتاتيبها إلى أن طوحت بنا النقل
إلى بلد مجاز الباب فمكثت فيه سنين عدة أقرأ ببعض
الكتاتيب هناك إلى أن بلغت من العمر الثانية عشر فوجهني
الوالد إلى الكلية الزيتونية وكان ذلك في سنة 1339
فلبثت بها أقرأ ولا زلت إلى الآن
أما حياتي الأدبية فتبتدئ من سنة 1337 تقريبًا حيث انني شغفت
بالأدب منذ صباي شغفًا عميقًا إذ صادف في نفسي هوى كامنًا
فأثاره فكنت أتلقف بلهفة، كل ما استطاعت يميني تناوله
من كتب والدي أو من غيرها ولما قدمت إلى المعهد الزيتوني

نص ترجمته

الشـــابّي

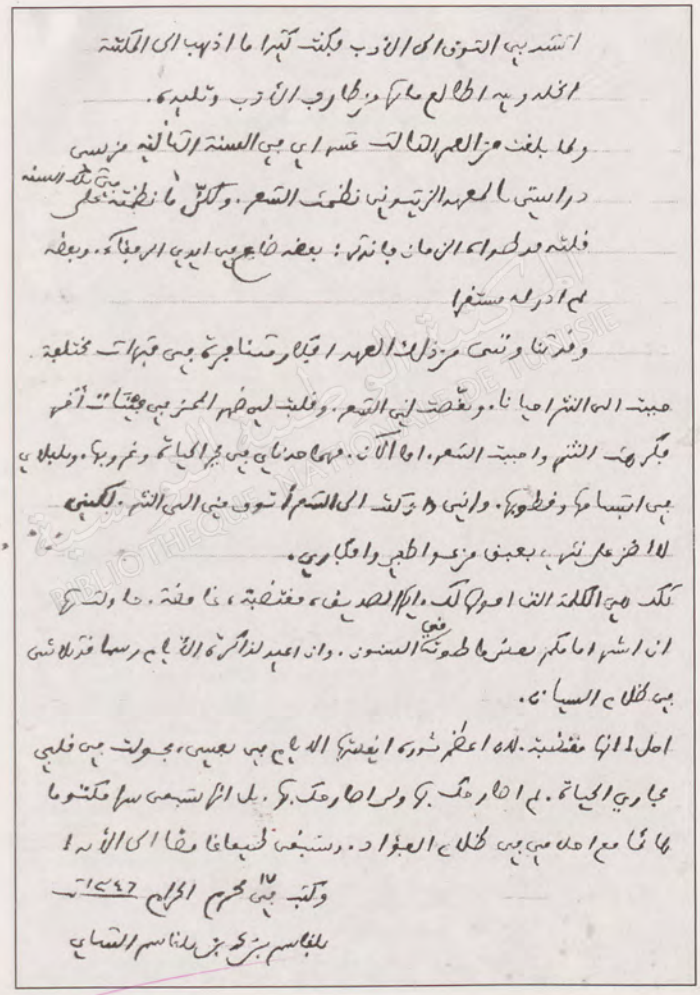

اشتد بي التوق الى الأدب فكنت كثيرا ما أذهب الى المكتبة الخلدونية اطالع ما تيسر من طارف الأدب وتليده.

ولما بلغت من العمر الثالثة عشر ابتدأت في السنة الثانية من دراستي بالمعهد الزيتوني نظم الشعر. وكل ما نظمته على تلك السنة فليته قد لحقه الزمان فأتى عليه: بعضه ضاع من ايدي الرفاق. وبعضه لم أدر له مستقرا

وفرتنا وتنقل من ذلك العهد أفكار متناجزة في قضايا مختلفة. حببت الي النثر اعجابا. وبغضت لي الشعر. وقلت ليوطم الحزن في فتيات أغمر فكري النثر واحببت الشعر، اما الآن. فهما عندي في مجرى الحياة وغرضها. وليلى في ابتسامها وغطرستها. وانني ما زلت الى الشعر أتوق مني الى النثر. لكنني لا اضع على نفسي بعض قيود الطبع واقتاريه.

تلك هي الكلمة التي اعرض لك. ايها الصديق، مقتضبة، فاوفقة. وما زلت ارى ان اشهد امامكم بعض ما طوته في السنون. وان اعيد لذاكرة الأيام رسما فر لاشيء في ظلام النسيان.

اجل! انها مقتضبة. لان اعظم شوق يعتري الانسان في الحياة، هو شوق في نفسي جاري الحياة. لم اطارحك به ولم اطارحك به. بل انه تجسم بما امكنه ما دام مع الحياة في ظلام الفؤاد. وستبقى كذلك ضياعا وهدى الى الأبد!

وكتب في ١٢ محرم الحرام ١٣٤٦

للقاسم بن حاج بن القاسم الشابي

ترجمته بخطه

«ذاكرة وإبداع»

الشـــابّي

اشتد بي التوق إلى الأدب فكنت كثيرًا ما أذهب إلى المكتبة
الخلدونية أطالع ما بها من طارف الأدب وتليده
ولما بلغت من العمر الثالث عشر أي في السنة الثانية من سني
دراستي بالمعهد الزيتوني نظمت الشعر ولكن ما نظمته في تلك السنة
على قلته قد طواه الزمان فاندثر: بعضه ضاع في أيدي الرفقاء وبعضه
لم أدر له مستقرًا
وقد تناوبتني من ذلك العهد أفكار متنافرة في فترات مختلفة
حبّب إلي النثر أحيانًا وبغّضت لي الشعر وقلبت لي ظهر المجن في فينات أخر
فكرهت النثر وأحببت الشعر أما الآن فهما خدناي في فجر الحياة وغروبها وبلبلاي
في ابتسامها وقطوبها وإني وإن كنت إلى الشعر أتوق مني إلى النثر لكنني
لا أضن على نثري بعبق من عواطفي وأفكاري
تلك هي الكلمة التي أقولها لك أيها الصديق مقتضبة غامضة حاولت بها
أن أنشر أمامكم بعض ما طوته مي السنون وأن أعيد لذاكرة الأيام رسمًا قد تلاشى
في ظلام النسيان
أجل إنها مقتضبة لأن أعظم ثورة أيقظتها الأيام في نفسي فحولت في قلبي
مجاري الحياة، لم أصارحك بها ولن أصارحك بها بل إنها ستبقى سرًا مكتومًا
هائمًا مع أحلامي في ظلام الفؤاد وستبقى طيفًا غامضًا إلى الأبد
وكتب في 17 محرّم الحرام سنة 1346
بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي

نص ترجمته

الشـــابّي

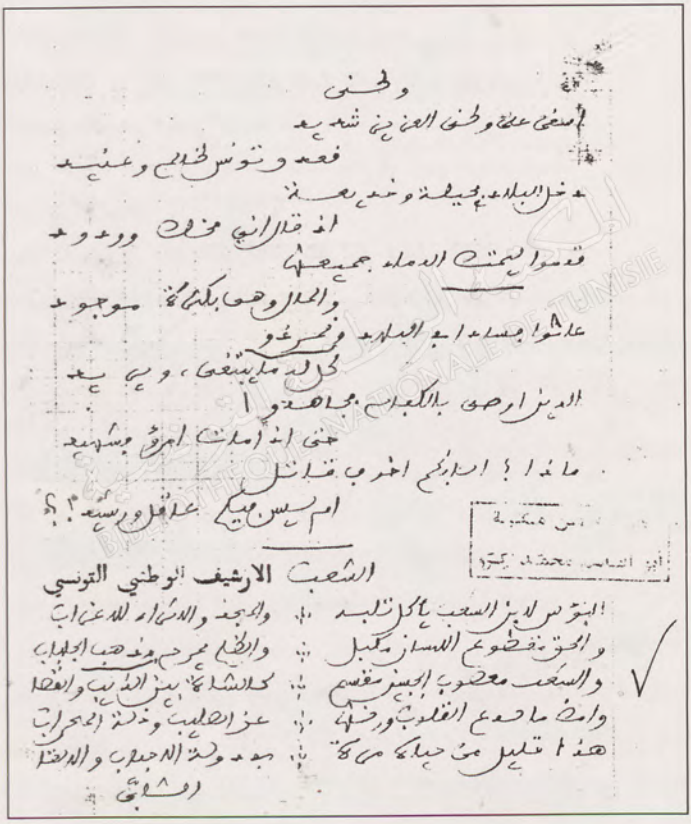

ولحنى
أمنى على وطنى العزيز نشيده
فعدو تونس ظالم وعنيده
دخل البلاد بحيلة وخديعة
اذ قال اني صاحب ووده
فتسوا ليمتص الدماء جميعها
والمال وهو بكفه موجوده
علموا بساعد اجله فتحرفوا
كل له ملء يبتغى، ويريده
الدين أرضى بالكبائر مجاهدوا
حتى اذا أملت امرؤ يستفيده
ماذا! اصابكم اخرب قاتل
ام ليس فيكم عاقل ورشيده؟!

الشعب الارشيف الوطني التونسي

البؤس للانس الشعب ياكل قلبه ✣ والجهد والاشراء للاعراب
والحق مخضوع اللسان مكبل ✣ والظلم مرجوم وذهب الجلباب
والشعب مصلوب الجبين مقسم ✣ كالشاة بين الذئب والثعلب
وامض ما صدع القلوب ورضها ✣ عز الصليب وذلة المحراب
هذا قليل من حياة مريرة ✣ بعد وذلة الاجداد والاحقاب

الشابي

من قصيدتين للشابي، إحداهما أكمل مما ورد في طبعات ديوانه

الشـــابّي

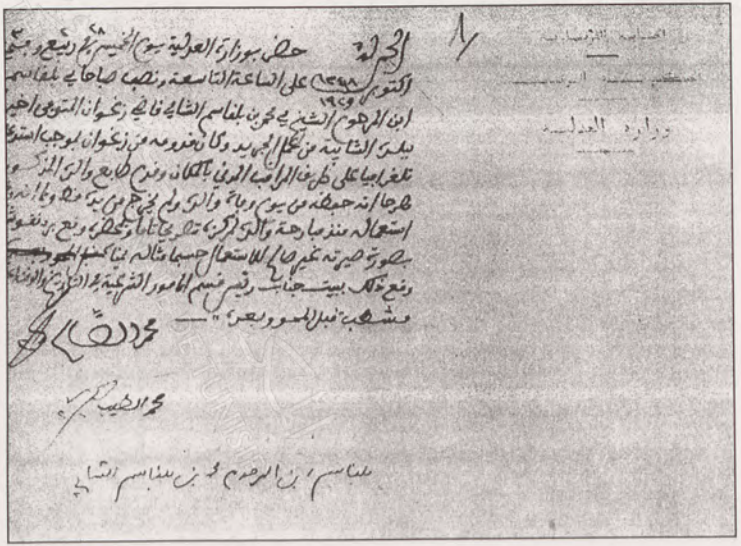

تسليمه ختم والده القاضي
للجهات الرسمية بعد وفاته

الشـــابّي

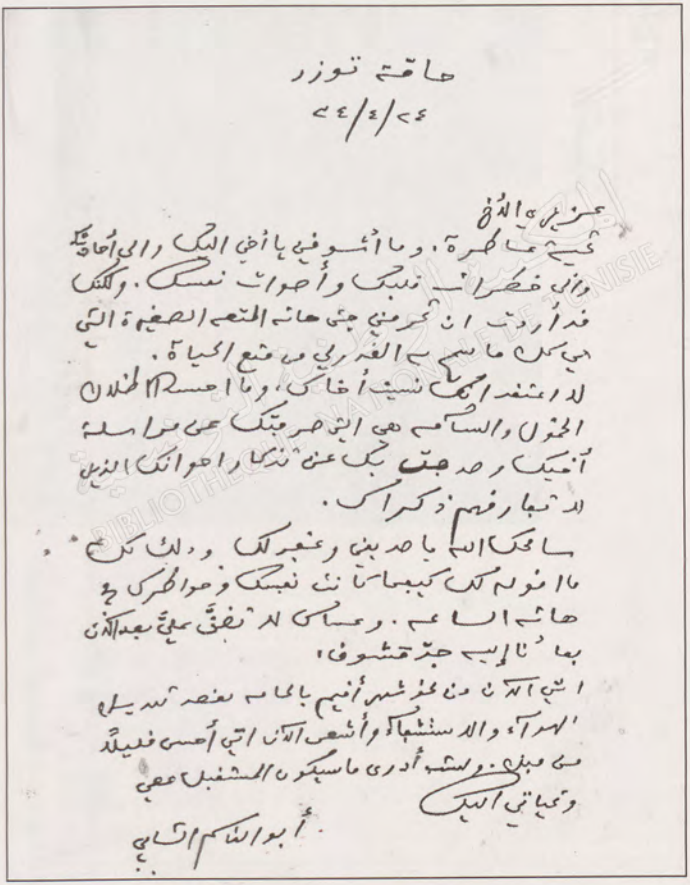

حامّة توزر
٢٤/٤/٢٧

عزيزي الأخ

كتبت عاطفة، وما أشوقني يا أخي إليك وإلى أحاديثك وإني فكرانٌ نفسك وأصوات نفسك. ولكن فد أردت أن أحرمني حتى هاته المتعة الصغيرة التي هي كل ما بقي لي الفدري من متع الحياة.

لا تنسني أخاك، وما أحسن الخلان الحزون والسأم هي التي حرمتك حتى مراسلة أخيك وحدتك عن تذكار أحوالك الذين لا تبارفهم ذكراك.

سامحك الله يا حدين وغفر لك، وذلك كل ما نرجو لك كبعاسانك نفسك وهواجسك في هاته الساعة. وعساك لا تفيق حتى بعد الآن بعد نائبة جد مشؤوم.

اشتي الآن من محمد شهر أقيم بالحامة بعض تلك الهواء والاستشفاء وأشعر الآن أني أحس قليلاً من قبل. ولست أدري ما سيكون المستقبل عني

وتحياتي إليك

أبو القاسم الشابي

رسالة من الشابي إلى صديق...

رسالة إلى
الطاهر الحدّاد

كلمة اعتذار

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

وصلتنا هذه الكلمة من طرف الأديب أبي القاسم الشابي يعتذر فيها على عدم تمكنه من الحضور لأنه مريض وقد قرئت في أثناء الحفلة.
ونحن خاصة نرجو لصديقنا كاتب الكلمة إبلالا سريعا وشفاء عاجلا.

اللجنة

نص الرسالة

حمدا وصلاة وسلاما.
لجنة الاحتفال المحترمة.
تحية لجميعكم وسلاما.

وبعد فإنّي أشارككم قلبيا في حفلتكم التكريمية المباركة وأشكر لكم سعيكم الجميل. ولكني آسف لعدم استطاعتي الحضور شخصيا إذ ما فائدة حضوري إذا لم

أصرح بما تجيش به نفسي من أفكار وما يطفح به قلبي من عواطف لقد حجر علي الطبيب كـــما تعلمون مباشرة أي عمل فكري فلم أستطـــع أن أخـــط كلـــمة أشاركـــكم بها في الاحتفال ولذلك رأيت أن حضوري لا جدوى وراءه فآثرت السفر على الحضور رغم ما يحدث في ذلك من حرمان وألم.

وفي الختام أرجو أن تقبلوا عذري والسلام من بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي.

ديسمبر 1930

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الشـــابّي

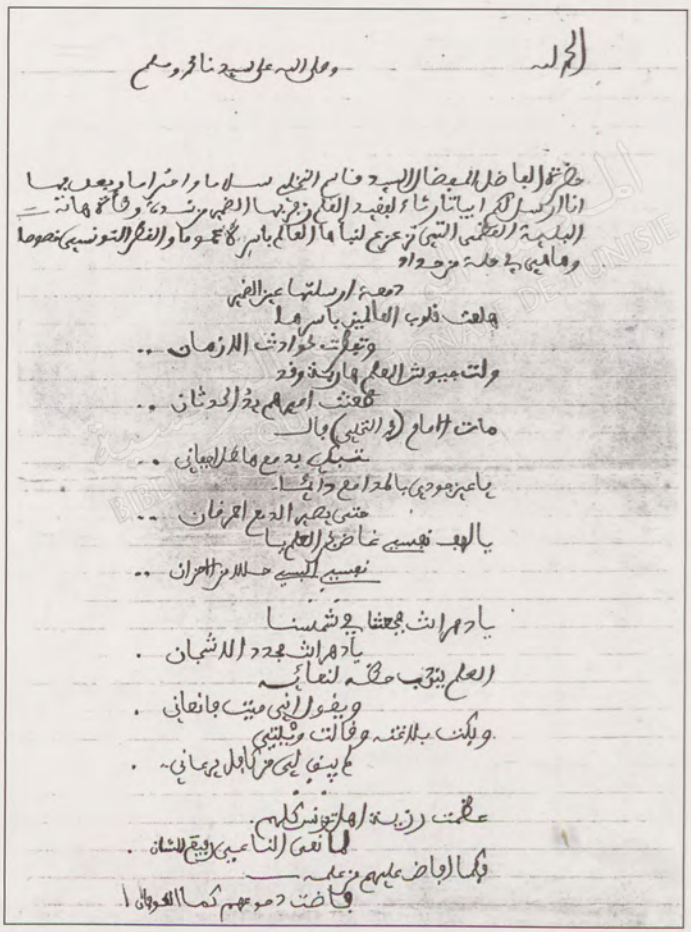

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

حفل الباحل المعضال الجامع الخلدوني سلاما واحتراما ويعتبر بها انا الرسل الكريم ايما تاثر شاء ليفيد العلم في بلدها الطهر مرشدا وفاتحة هانة البلدية العظمى التي تزعزع لنبأ العالم باسره كالحموما والفكر التونسي خصوصا وعامي بوجه واحد

قصيدة ارسلها عبر الفضاء

هلعت قلوب العالمين بأسرها
وتبلبلت خواطر الازمان ..
ولت جيوش العلم هاربة وقد
ذعرت أمامك يد الحدثان ..
مات الإمام (والتلمي) بال
شبكي بدمع هامل الهتان ..
يا عبقريا بالمدامع واهيا
حتى يجف الدمع الهرمان ..
يا لهف نفسي غاض نبع العلم يا
نفسي لنفسي حلأ مر الهوان ..

يا دهر اثت بجعتنا يا شمسنا
يا دهر اثت بمجد الاشجان .
العلم ينعب حظه لنعائه
ويقول اني ميت بانعائي .
ولكنت بالامنه وقالت ويلتي
كم يشتفي لي من اليل يرعاني .

عظمت رزيتك اهل تونس كلهم
بل نعى الناعي بكل لسان .
فكما اباض عليهم من علمه
فاضت دموعهم كما الطوفان !

أوّل قصيدة له

الشـــابّي

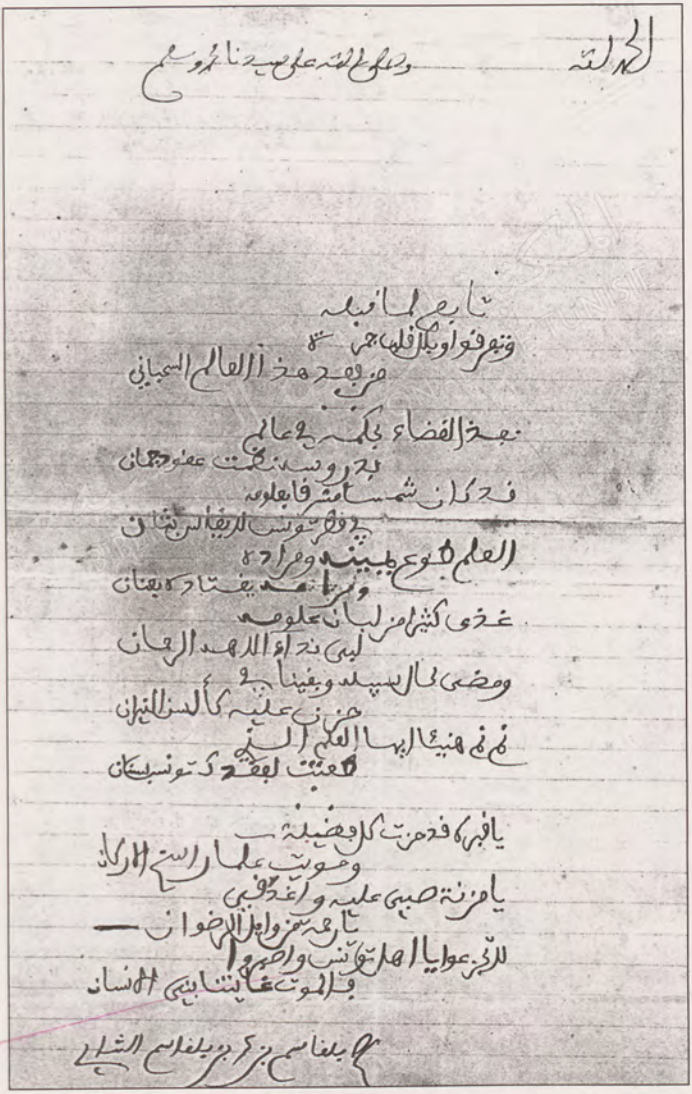

الشـــابّي

إرادة الحياة

اذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي ... ولا بدّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانق شوق الحياة ... تبخّر في جوّها، واندثر
جويل لمن لم تشقه الحياة ... من صفعة العدم المنتصر
كذلك قالت لي الكائنات ... وحدّثني روحها المستتر

•

ومدت الريح بين الفجاج، ... وفوق الجبال، ولحت الشجر:
«اذا ما طمحت إلى غاية ... ركبت المنى، ونسيت الحذر»
«ولم أتجنّب وعور الشعاب ... ولا كبّة اللهب المستعر»
«ومن لا يحبّ صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر»

فعجّت بقلبي دماء الشباب ... وضجّت بصدري رياح أخر...
والهرقت، أصغي لقصف الرعود،
وعزف الرياح، ووقع المطر

•

صفحة بخط المؤلف من أغاني الحياة.

قصيدة «إرادة الحياة» للشابي بخطه

الشـــابّي

للوفاء والذكرى

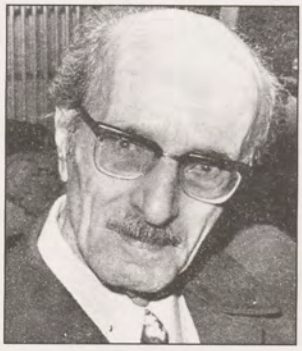

ميخائيل نعيمة يتحدث عن الشابي

بادر الأديب الكبير أبو القاسم كرّو سنة 1952 بإصدار أول كتاب حول شاعر تونس الخالد أبو القاسم الشابي بعنوان «**الشابي حياته - شعره**» .

وقد سعى أديبنا أبو القاسم محمد كرّو- أمد الله في أنفاسه - بإهداء نسخة من هذا الكتاب إلى الأديب الكبير الراحل ميخائيل نعيمة الذي رحّب بالهدية من خلال رسالة بعث بها إلى المؤلف عام 1953 وهذا أبرز ما جاء فيها:

«وأمّا كتابك عن الشابي فهو في نظري خدمة جليلة للأدب العربي وللمكتبة العربية فهذا الشاعر الفذ الذي طوت المنون صحيفة عمره وهو ما يزال في ريق الشباب جدير بأن يعرف العرب في كل أقطارهم أين نبت وكيف عاش وعمّا ذا تفتقت قريحته الجياشة بالثورة على الظلم والبشاعة، والتواقة إلى العدل والحرية والجمال، فليس يكفينا أن نعرف أنّه القائل :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ولا أبالغ إذا قلت أن أكثر الذين سمعوا بالشابي لا يكادون يذكرونه إلا بتلك القصيدة «إرادة الحياة» فكتابك عنه قد جاء في وقته، بارك الله فيك ».(١)

(**من رسالة منه بتاريخ** 10 - 3 - 1953)

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

(١) نص الرسالة كاملا في «المجموعة الكاملة» : 8 ص 409 ط1 بيروت 1998 .

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الشـــابّي

للوفاء والذكرى

أبو القاسم الشابي دون العشرين

الشـــابّي

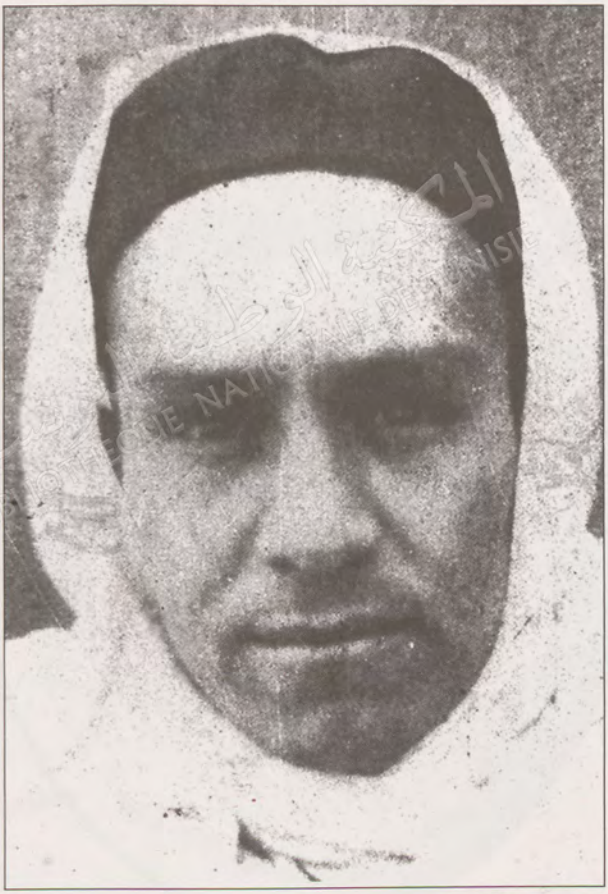

أبو القاسم الشابّي

باللباس التقليدي لأهل الجريد (توزر)

أبو القاسم الشابي
(1909 - 1934)

الشـــابّي

الشابّي في أوج تألّقه الإبداعي

الشـــابّي

«الشابي» كما رسمه الفنان التونسي الكبير حاتم المكّي

الشـــابّي

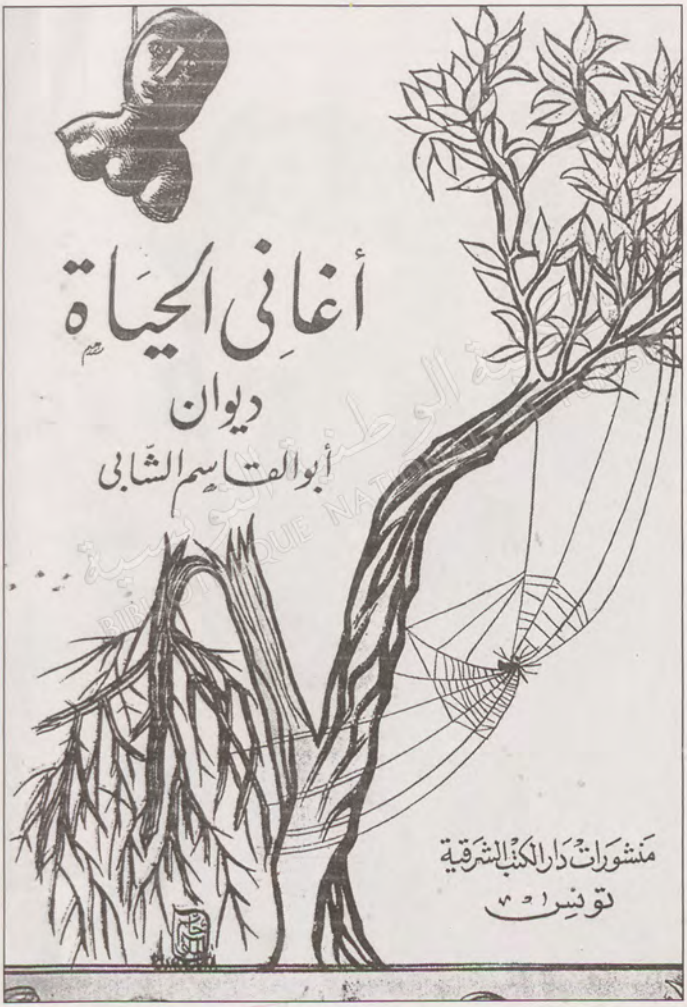

الطبعة الأولى من ديوان «أغاني الحياة»
وعليها رسم حاتم المكي

الشـــابّي

أبو القاسم محمد كرّو في معرض مظمه عن الشابي عام 1959 في تونس بمناسبة مهرجان الشابي. ويظهر بجانبه الأستاذ محمود المسعدي وخلفه الدكتور أحمد عبد السلام

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE
المكتبة الوطنية التونسية

الشـــابّي

أبو القاسم محمد كرّو يلقي محاضرة
عن الشابي عام 1966 في توزر
بحضور الوفود العربية
والفرنسية والبريطانية

الشـــابّي

صديقه محمد الحليوي

«رسائل الشابي» أعدّها للنشر الأديب محمد الحليوي في «دار المغرب العربي» بتونس لصاحبها الأستاذ كرّو

الشـــابّي

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE
المكتبة الوطنية التونسية

موسوعة الشابي في ستة أجزاء
أنجزها نصيره الأول والأكبر :
أبو القاسم محمد كرّو

الشـــابّي

هـذه المجمـوعة

1 - أغاني الحياة . الخيال الشعري عند العرب . مذكرات .

2 - رسائل الشابي . نثر الشابي ...

3 - الشابي في مرآة معاصريه .

4 - رسائل حول الشابي .

5 - دليل الباحثين عن الشابي .

6 - الشابي : صُوَر وكلمات .

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

محتوى «موسوعة الشابي»
في الغلاف الأخير للجزء السادس

الشـــابّي

تقديم وتحقيق: أبو القاسم محمد كرّو

الشـــابّي

ضريح الشابي في مدينة توزر (كما كان سابقا)

أبو القاسم محمد كرّو أمام ضريح الشابي
في مسقط رأسه بتوزر (كما هو الآن)

الشـــابّي

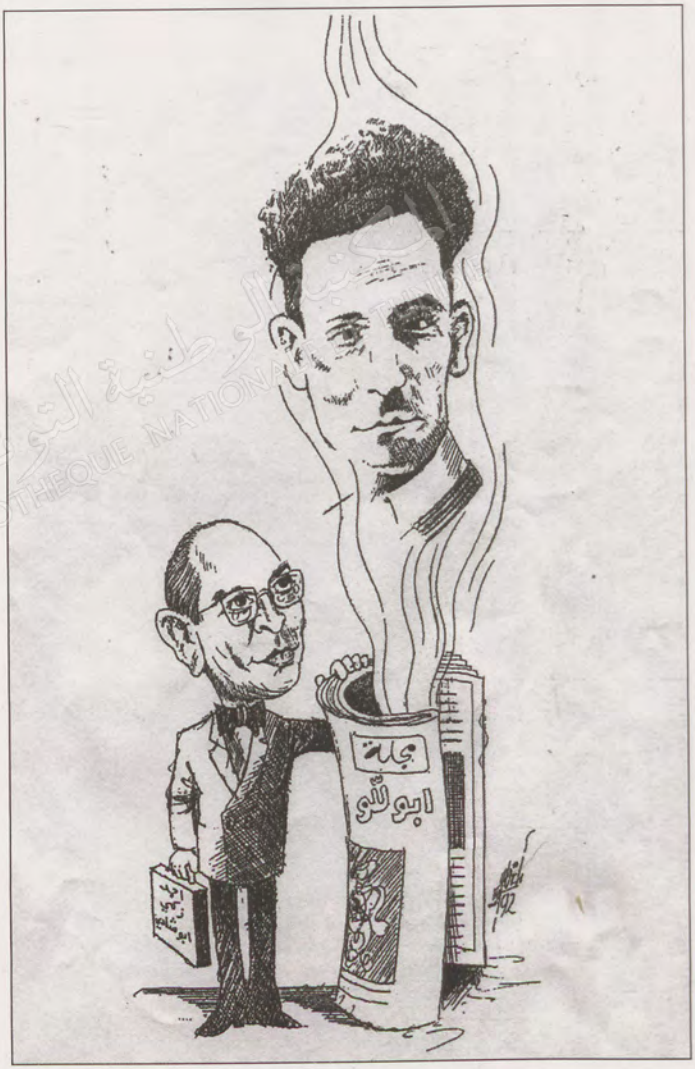

أبو شادي والشابي: رسم علي عبيد

الشـــابّي

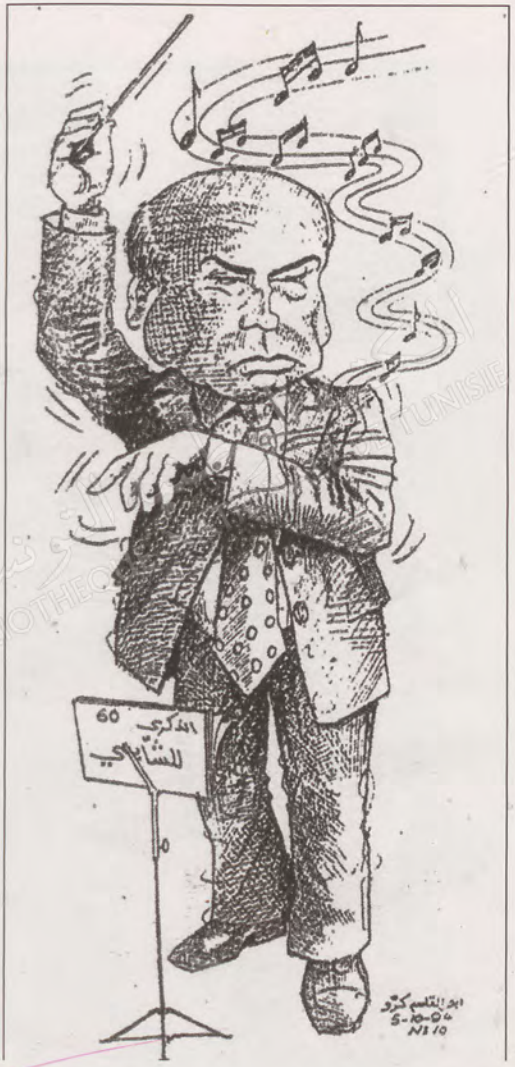

أبو القاسم محمد كرّو: مايسترو سمفونية الشابي

رسم علي عبيد

الشـــابّي

أبو القاسم الشابي في مائويته

للفنان الكبير علي عبيد

(عن الملحق الثقافي لجريدة الحرية 26-02-2009)

الشـــابّي

سيادة الرئيس زين العابدين بن علي يمنح شاعرنا الخالد (أبو القاسم الشابي) الصنف الأكبر من «وسام الإستحقاق الثقافي». وقد تسلمه إبنه محمد الصادق في اليوم الوطني للثقافة لسنة 1989 بقصر قرطاج الرئاسي.

من اليسار إلى اليمين: الموسومون في عيد الثقافة (1989) الوشاح الثقافي: أبو القاسم الشابي وقد تلقاه ابنه محمد الصادق (الجالس الأول – من اليسار – يليه على التوالي الموسومون بوسام الاستحقاق الثقافي من الدرجة الأولى: رشيد إدريس – أبو القاسم محمد كرّو (مؤلّف الكتاب) – محمد بن اسماعيل – الهادي التركي – صالح المهدي.

الشـــابّي

الطبعة الأخيرة لأول كتاب عن الشابي صدرت في تونس
سنة 2009 بمناسبة مائوية شاعرنا الكبير

أبو القاسم الشـابّي

«حبّي للشابّي بَدَأ عام 1943، وهو يزداد كل يوم عن سابقه.

هو عندي شاعر تونس الأوّل، وبعده يأتي بقية الشعراء... من القرن الثامن للميلاد.

أنا أحبّه، نعم أحبّ الشابّي، لأنه رفع في الخارج اسم تونس، فحُبّي له يُجَسِّمُ حُبّي لتونس. وهذا المعنى قلته كلّما تحدّثتُ عنه.

بَدَأْتُ كُتبي عنه عام 1952، وهي تَبْلغ اليوم أحد عشر كتَابًا، وقدّمْتُ وأشرفْتُ على جميع كتبه ومنها ديوانه «أغاني الحياة»، و«الخيال الشعري عند العرب» و«المذكرات»ر و«الرسائل»، وأضفْتُ له كتابًا جديدا هو «نثْر الشابّي».

أمّا الكُتب المُتعلّقة به والتي نشرتها أو قَدَّمْتُ لها فهي أكثر من عشرة كُتب...»

(الشابّي – حياته – شعره – كتاب الحريّة، رقم 11– فيفري 2009 – ص 16)

أبو القاسم محمد كرّو

الشـــابّي

أبو القاسم محمد كرّو

نصير الشابي ومجدّد ذكراه في كل حين

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

كتب ألفتها عن الشابي

1 الشابي: حياته وشعره ط. أولى 1952 (20 طبعة) اخرها 2010
2 كفاح الشابي.. أو الشعب والوطنية في شعره ط. 1954 و1957 و1960 و1989 واخرها 2010
3 آثار الشابي وصداه في الشرق 1961 و1988
4 دراسات عن الشابي: ط1966 و1988
5 الشابي من خلال رسائله ط 1971
6 نثر الشابي ط 1994 و1999 و2010
7 الشابي في مرآة معاصريه ط 1994 و1999
8 رسائل حول الشابي ط 1994 و1999
9 دليل الباحثين عن الشابي ط 1994 و 1999
10 صور وكلمات ط 1994 و1999
11 شعراء المغرب (تحقيق وتقديم) ط1994و1999
12 أغاني الحياة.. ط 1994 و1999
13 الخيال الشعري ط 1994 و1999
14 المذكرات ط 1994 و1999
15 نثر الشابي (جمعته له) ط 1994 و1999 و2010
16 رسائل الشابي ط 1966 و1994 و1999
17 الشابي: أبحاث، وثائق، صور، (ج1)، ط1 2009
18 الشابي: أبحاث، وثائق، صور، (ج2)، ط2 2010

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

كتب شاركت فيها ببحث

19 ذكرى الشابي وأحمد أمين ط 1956
20 التعريف بالأدب التونسي ط 1977

كتب لي تناولته فيها

21 حصاد القلم ط 1954
22 شوقي وابن زيدون ط 1956 وما بعدها
23 الطاهر الحداد ط 1957 و1999
24 حصاد العمر (1–6 مجلد) ط 1998
25 عبقرية الحداد ط 1999
26 حوار وشعراء ط 2001
27 تراجم قصيرة ط 2004

أبو القاسم محمد كرّو

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الشـــابّي

إصلاح أخطاء

(وردت في القسم الأول)

ص	س	خطأ	صوابه
43	عنوان	شاعر الحب والحرية	شاعر الحب والحرية (1)
43	هامش	(بياض)	(1) مجلات عديدة 1966
143	9/8	6-1952-16	1952-6-16
161	هامش	جريدة الحرية	جريدة العمل
170	8	33 كتابا	41 كتابا
170	20	ثم1997 - 1985	ثم1985 – 1997
172	18	دمشق 1973	دمشق 1971
174	15	وسام الاستحقاق الثقافي	وشاح الاستحقاق الثقافي

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الشـــابّي

الفهرس العام

القسم الأوّل

- مقدّمة 5
- أبو القاسم الشابّي 7
- وثيقة: الشابّي بخطّه 17
- ما يجب نَحْوَ الشابّي 25
- قفصة والشابّي 36
- الشابّي شاعر الحُبّ والحرّية 43
- مَنْزِلة الأدب الشعبي عند الشابّي (1-2) 51
- الشابّي والرثاء من خلال قصيدة لم تُنْشر 66
- محمد الحليوي وعمر فرّوخ بَيْن مقال وكتاب 75
- الشابّي وسليمان العيسى 82
- اللّيْل ونازك والشابّي 89
- علاقة الشابّي بجماعة «تحت السّور».
والطّاهر الحدّاد 97
- تقاديم: «مقدّمات» أبو القاسم محمد كرّو 102
- رسائل حَوْل الشابّي (مقدّمة) 103
- ملاحظات حول مؤلّفات الشابّي والأعمال الكاملة
المزعومة 109
- «أغاني الحياة» (تقديم) 113
- «الخيال الشعري عند العرب» (تقديم) 116

– مُذكّرات الشابّي» (تقديم)..... 119
– «نَثْر الشابّي» (مقدمة)..... 122
– «رسائل الشابّي مع الحليوي» (تقديم)..... 126
– خلفيات حول كتُبي عن الشابّي..... 129
– ذكريات وأعمال عن الشابّي..... 140
– حوار الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو /«الملحق الثقافي» لجريدة الحريّة..... 150
– «ما أعظم الخسارة وما أكثر العقوق» (إلى ن. ص)..... 161
– أبو القاسم محمد كرّو: لمحات عن حياته وأعماله العلمية..... 170

القسم الثاني

– تقديم: أبو القاسم محمد كرّو: نصير الشابّي ومجدّد ذكراه في كلّ حين/ فتحي اللواتي..... 3
– كتّاب «كفاح الشابّي» أو الشّعبْ والوطنيّة في شعره تأليف: أبو القاسم محمد كرّو..... 9
– الإهداء..... 10
– مقدّمة الطبعة الثالثة..... 11
– مقدّمة الطبعة الثانية..... 13
– مقدّمة الطبعة الأولى..... 16
– ميلاد الشابّي..... 24
– كفاح الأديب..... 33
–قصّة الشّعر العربي..... 39
– نَهْضة الثّقافة العربية..... 47
– شاعر جبّار..... 55
– قمّة الشابّي..... 73

– وطنية عميقة 85
– الطّبيعة عند الشابّي والنّزعة الوطنيّة 111
– ملاحق: حول «كفاح الشابّي» 135
– وثائق 147
– صور 169
– أعمال الأستاذ كرّو عن الشابّي 193
– الفهرس العام 196

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

وزارة الثقافة
تونس
المكتبة الوطنية

الشـــــابي

أبحاث - وثائق - صور

(القسم الثاني)

كتبها ونشرها
أبو القاسم محمد كرّو

المونتاج الطباعي
عصام غرسلي
الإنجاز الطباعي
مطبعة المغرب للنشر
الشرقية 1 - تونس
تونس2010

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

أبو القاسم الشابّي

هذا النجم الذي هوى وهو في وهج ضيائه...
هذه الصيحة البكر المتفجرة من الأعماق التي خمدت وهي في زهوة انطلاقها.
الشابي.. شاعر الشعب والحريّة ، شاعر الحياة والخلود شاعر الفجر المتألق والبعث الجديد. مَنْ مِنْ قرّاء العربيّة لا يعرفه.. ولا يردّد أبياته الخالدة:

إذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بدّ أنْ يستجيب القدر
ولابُـدّ لليـل أنْ ينجـلي ... ولابـدّ للقـيدِ أنْ ينكسر

إنّ هذا الشاعر قد خرج بالأدب من حدوده الضيقة وطرائقه الميّتة، وسما به من دنيا الخصوصيات والتوافه الى عالم مشرق جميل، يفيض بالنور والمحبة والخير والكرامة البشريّة، ويعبّر عن المطالب السامية للنفس الإنسانية، ويصوّر الجوانب الرفيعة من حياتنا، ويتجاوب في احساس ووعي كاملين مع مصالح الشعب مصوّرا آلامه وآماله، في توهج حارّ وجمال فاتن ويقظة مستنيرة تدعو إلى الحياة وتثور على الذات وتحارب الظلم والطغيان.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

8.500 د